عبد اللطيف الوراري

ضوء ودخان

(شذرات من سيرة ذاتية)

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله
بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الكتاب : ضوء ودخان (شذرات من سيرة ذاتية)
الـمؤلف : عبد اللطيف الوراري
الطباعة والنشر : سليكي أخوين - طنجة
الهاتف : 06.61.17.08.78 - 05.39.32.31.80
الحقوق : محفوظة
الطبعة : الأولى - أكتوبر 2016
الإيداع القانوني : 2016MO3338
الترقيم الدولي : 978-9954-661-88-8

إلى أُمّي

«انظروا كيف ولدت مع قطعة ما يُسمّى بالشعر داخل طبيعتي، وكيف أنّ هذه القطعة من النار الإلهية قد اتّقدت في نفسي بغير عِلْمٍ منّي، وألقت ببعض الضوء الهارب على شبابي، وتبخّرتْ، في وقت لاحق، في الرياح العاتية من اعتدالي، ودخان حياتي!»

(لامارتين)

عَوْدًا على بدء

فقد يتأتّى لبعضنا وهو يتذكر، أن يُبْدع صُورًا لم يسبق له أن عاشها إلا ما كان من سِقْط أحلام اليقظة؛ ويتأتّى له من الخيال ما يجتاز به مباذل الحياة اليومية وينسج البدائع والطرائف.

ولكن،

ما لسان حاله ودأب جهده أمام وقائع ولّتْ واستحالت إلى رميمٍ وذرّات في نهر الزمن السحيق؟

هل استطاعت ذاكرته أن تحتفظ بألقها فأبقت له من شريط عمره، في السراء والضراء، ما يقدح زند مُخيِّلته متى شاء؟

كيف تظلُّ علاقته بمكانه الأول، لاسيما إذا هجره بَغْتةً وبلا سابق ترتيب، وعبر منه إلى أمكنة أخرى كثيرة في الواقع والخيال؟

تلك بعض أسئلةٍ من فيض، وأنا أستعيد -مع من أستعيد- زمن الكتابة وتجربتها الأولى، ومكانها الأوّل، وروائحها وأطيافها وتخاريمها الأولى، قبل أن تتشابك مع مصائر جديدة، وأفق جديد يتراءى من بعيد كدعابة على مُحيّا شيخ.

إنَّ الطفل الذي كنْتُه لا يزال يسكنني، ولا تزال الطفولة مصدرًا يثري كتابتي الشعرية، ولا تزال الأمكنة التي أقمْتُها وعبرْتُها تتراءى لي كنجماتٍ تُضيء طريق مُخيّلتي لهويّةٍ تتحوّل باستمرار، وتسند أبْنيتي النصّية، ليكون تأريخها جميعًا بشكْلٍ ما، تأريخًا لزمنيّتي وسرديّاتي في الحياة بما تذّخر من خبرةٍ ودم.

وأنا أهشُّ بعصا ترحالي على جهات الأرض، بعيدًا عن مسقط الرأس لسنوات طوال، أرى أنّ تلك القرية وما تلاها قد تحوّل إلى حالةٍ شعريّة تستعيد تلك الطفولة التي عشْتُها وتخيّلْتُها.

فنحن كلما تقدم بنا العمر، نظلُّ مسكونين أكثر بالعودة إلى طفولتنا وعوالمها الثريّة التلقائية. هذا قدر الإنسان، الأنطولوجي والدراماتيكي في آن. وما دُمْنا نركض باتجاه الموت، فلا بُدّ لنا من العودة للطفولة بأسباب الحنين إليها، لأنّنا عشناها ببراءتنا وجهلنا العارف.

أنا أرى إليها الآن كما لو كانت فردوسًا مفقودًا، حتّى وإن هي في الواقع أشبه بأطلال درستها الأيام ونعقت فيها البوم والغربان.

هكذا، بهذا المعنى، يتحوّلُ البحث في الكتابة بِجُمْلته إلى بحثٍ عن المكان وعن أثر الذات فيه، ومن ثمّة يمكن النظر إلى الكتابة على أنّه جهْدٌ متواصل يضع الذات أمام هويّتها الخاصة التي تتحدّد بمدى ارتباطها بالمكان أو انفصالها عنه، فتتحوّل بالنتيجة من مُجرّد فنٍّ إلى سلاحٍ يتمكن الكاتب بواسطته من إعادة إنتاج الأشياء بما في ذلك الذّات نفسها، أو بالأحرى تخييلها بما يقتضيه من أفعال شطب وتحويل وبناء.

ثمّ، أليست «الكتابة هي وسيلة استعادة المكان» بتعبير عبد الكريم الطبال الذي لم يُخْفِ مشاعر الارتياب العميقة التي انتابتْهُ وهو يؤلّف (فراشات هاربة)، سيرته الذاتية ذائعة الصيت والعطر؟

والحقُّ أن هذه السيرة كانت تتماهى، في أحيان كثيرة، مع هذه الشذرات التي نثرتُها من سيرتي ذاتي؛ كانت تهرب إليها ومعها إلى عالم الشهود الأول، ثُمّ تعود إليَّ وقد ظمئت أكثر إلى آخَري غيري وخارج حسباني. ورُبّما زدنا على ذلك ما أخبر به غاستون باشلار: «عندما نحلم بالطفولة، نعود إلى مرقد تأمُّلاتنا، إلى التَّأملات التي شرعت لنا أبواب العالم».

صور وأصوات كثيرة تشرّبَتْها ذاكرتي، أشعر بها تتكوّم في راحة اليد مثل حلي امرأة منسيٍّ.

أفتح راحة اليد. أتقرّى في خطوطها، فتقرب وتنأى.

أحاول الكرَّة ثانيةً، تضحك فتعرق، إلى أن يطلع منها بخارٌ يتراءى بعد انقشاعه ريشَ يمام مات للتوِّ اختناقًا، وترك للحلي سرَّ الصدى.

ما أن أمسك بإحدى ودائع الريش، حتى تستغرقني ريحٌ رخاء، فتنطلق قواقع وتنفرج غيمات.

أنا لست أحلم أو استبدّ بي نزق قصيدة، بل أسحب نَفَسًا لأتذكّر؛ أعود بالذاكرة إلى الوراء...

- ماذا قلت يا راويًا؟ إلى الوراء؟

- نعم، لقد وصلْتُ للتوِّ وخلفي حياةٌ وصرعى.

- كان الأولى بك أن تقول: نزلت بي الذاكرة من فوق؛ فنحن لم نترك ماضيًا وراءنا، بل هبطنا من فردوس نفتقده باستمرار، ونتخيّله أكثر كُلّما دنونا من الموت.

- وإذن، فالموت يطعننا من وراء؟

- بل ينتظرنا في الأسفل فاغرًا فاه مثل هاوية عدم.

- يا صاح، فلتتخيّلْ..

دُكّالة

بما يُشبه دَرْسًا في الصمت أتخيّلها؛ أتخيّلُ بادية نائية من بوادي دُكّالة المترامية الأطراف بأراضيها المنبسطة، وقد ازدانت بكلّ أنواع الثمار والمغروسات طوال العام لجودة التربة واعتدال الجوِّ، واتسعت لقرى ومدن ومراسٍ وأسواق وفلاحة، وتهادَتْ سهولها بسُكّانٍ هم في أصولهم خليط بين أمازيغ وعرب. وهم لا يتكلمون إلا العربية بعد أن عُرِّب لسانهم، على الأرجح، أيام الموحدين الذين أتاحوا الفرص لموجات من الهلاليين للنزول بسهولهم ومدافعتهم جزاء موقفهم الرافض من دعوة المهدي ومذهبية دولته.

ولفظة دُكّالة التي تتداولها المُدوّنة التاريخية مند تسعة قرون، منحوتة من كلمتين، هما: «دو» و«أكال»، وتعنيان في الأمازيغية الأراضي المنخفضة لانبساط سهلها على مساحة شاسعة تمتدُّ من أم الربيع إلى جنوب تانسيفت.

دانت دُكّالة بالإسلام منذ أيام المرابطين الذين غرسوا في من سكنها حُبّ آل البيت واتِّباع مذهب الإمام مالك، فعرف منهم

أئمّةٌ ورجالٌ من أهل العلم والصلاح والفضل والعبادة والتربية الصوفية، أقاموا رباطات وزوايا حالت دون أطماع برغواطة و تسلُّط الموحدين. وكثيرٌ منهم ضرب بعصا ترحاله إلى حواضر المغرب وبلاد المشرق، ساعيًا وراء ترقية روحٍ ومزيد علمٍ. وساهمت رحلاتهم في ربط الصلات الثقافية بين المغرب وأجزاء من العالم الإسلامي، وصلت إلى الهند.

وقد أعجب الإمام البوصيري بتقواهم وصلاحهم، ورغب في أن ينتسب إليهم نسب محبّةٍ وتعلُّق:

وما أنا من دُكّالةٍ غير أنّني نُسِبْتُ إليهم نسبة الصدق في الحُبِّ
كَنِسْبة سلمـــانٍ لِبَيْت نَـبيِّهِ وما كان منهم في قَبيلٍ ولا شِعْبِ
جَزى الله خيرًا ملّةً أخرجتْهمُمُ من الناس إخراج الحبوبِ من اللُّبِّ

وفي العصر الحديث جدّد عهد ذكراهم الشيخ العلامة أبو شعيب الدكالي الذي طبقت شهرته الآفاق؛ فقد خطب في الحرم المكي، وأفتى في المذاهب الأربعة، وألقى دروسًا بجامعي الأزهر والزيتونة بتونس وكانت له حظوة الرياسة العلمية في قصور ملوك العلويّين، وعلى يديه نشأ جيلٌ من بناة المغرب الحديث.

وقد تشكلت دُكّالة من ست قبائل تاريخية تقلّبتْ مع دول وعصبيّات، ولكن لم تكن تتعصب لحكم أو نزعة إلا ما كان من تعلُّقها بالأرض والدفاع عنها. ولا أن يتزمت أهلها في تديُّن ظاهر؛ فقد غلب عليهم الفكه والتسامح وسمت البساطة، وأقبلوا على مواسم دنياهم وأسواقها بتفانٍ وتشهَّوْا منها النساء والخيول والأطعمة والشراب.

إنَّها إقليم متماوج يَصّاعد منه بخار الأزمنة وبخار الماعون. وفي مجراه، تمركزت قبيلة أولاد عمران حول إلسكاون بالقرب من بحيرة تُدعى ورار بسهل سيدي بنّور، وامتدّت شرقًا إلى الجبل الأخضر وغربًا إلى الساحل.

وكانت قرية النواصرة إحدى قرى أولاد عمران المتناثرة كحبّات انفرطت من عِقْدٍ منسيٍّ. قرية صغيرةً، هادئة، تقع على سهل منبسط، ويسوِّرها نبات الصبّار من أكثر الجهات. وفي خارجها نهارًا، تلوح مطامير تَعوّد السكان أن يخزنوا فيها حبوبهم، ويُقال بأن القمح يحفظ في هذه المطامير لنحو مئة سنة دون أن يفسد أو تتغير رائحته. مثلما يتراءى لك آبار للسقي وحقول مُتراصّة اصطفَّت مثل رقع شطرنج. وليْلًا، تلوح نجمات دانيات القطاف وأنوار من البعيد تتلامحُ خافتةً. وتشعر كُلّما غامت السماء كأنّك بمرأى وردة تتشقّقُ من وصال، وهي إن أشرقت فمهرجانُ أصواتٍ وإيقاعاتٍ من كل فجٍّ عميق.

لكن لم تكن هنا الطبيعة وحدها، بل كانت إلى جنبها الأهواء والمصالح والدسائس على قدم وساق؛ فلم يمرَّ يوْمٌ دون أن يحدث خصام على بئر، أو يحترق بيدر، أو يُسرق ثوْرٌ في جنح الليل، أو تكسر صمته خيانة. وكانت القرية تتشكل من جيبَيْن: أحدهما تفشّتْ فيه الفاقة وغالبه سوء الحال وضيق ذات اليد، إلا أن أصحابه من البسطاء والسذّج ذوو أنفة لا يذخرون وقتًا وجهدًا طوال النهار لتحسين ظروف العيش، وهو جيب العبادلة. وثانيهما علا بنيانه،

وظهرت أمارات الغنى والوجاهة على قُطّانه كابِرًا عن كابر ممن خدموا المخزن وتقرَّبوا إليه بهدايا ووشايات مغرضة، وهو جيب الغنادرة. وكان بين الجيبين خصومات وعداوات ما فتئت توهي جسم القرية، وتفتُّ في عمرانه من عهد إلى آخر.

كان بيت العائلة في عداد الأول، تلتئم داخله بُيوتاتٌ من الطين مُغطّاة بأسقف من قصب السكر تدعمها جذوع أشجار، وكانت صغيرة متواجهة يسكنها أبناء الجدّة محجوبة التي عُرِف عنها قسوتها وحِدّة طباعها جَنْبًا إلى جنب مع تديُّنها وحرصها عليهم بعد موت زوجها. وكان الأبناء يخافونها ولا يقعدون عن تلبية كلِّ حاجةٍ تطلبها منهم وأمْرٍ تستشيرهم فيه. وكان عبد الله أعزَّ أبنائها الثمانية إليها، فقد عُرف عنه حدبه عليه مع عِزّة نفسه وطموحه الذي لا يتوقف عند حدّ؛ فقد استطاع أن يتعلم القراءة والكتابة، ويمتلك بعرق جبينه تجارة كسب منها، في وقت وجيز، أرباحًا تطاولت حتى أوغرت عليه صدور الحسدة ومحاجر القاعدين. وكانت المرأة التي تزوّجها من الجوار في القرية، امرأةً جميلةً وفارعة الطول دون العشرين، تتلألأ غُرّة وجهها بوشم زاده صباحةً مع تورُّد خدَّيْها. دخلت عليه بالبركة وسعة الرزق، وأنجبت له بِنْتين وولدين، وكانت أكبرهُنَّ واسمها نجاة قد ماتت؛ نجاة التي لم تنْجُ حتى بربيعها الأول، فبقي يضوع بالعبق الشارد بين الحيطان.

رأيت النّور

عندما كانت أُمّي حامِلًا بي، فرح أبي فرحًا شديدًا؛ فإن الحياة ما تزال تطرق بيته بالذرّية والأسباب. وأخذ يفكر في ما يُسمّيني به حين آتي إليه ويأخذني بين ذراعيه، كأن التسمية طعم وتعويذة ونداء. إما عبد الوهاب، أو لطيفة إنْ وُلِدت أنثى؛ فإنّ أهل القرية ليس من عادتهم ولا في استطاعتهم أن يجروا فحوصات طبية على المرأة الحامل وجنينها، ليطمئنّوا على صحته ويتبيّنوا جنسه. عبد الوهاب أو لطيفة! كانت أذن أبي ملتصقة بالمذياع الخشبي في البيت والسوق، بما يشبه تمرينًا ذاتيًّا على التعلم والإصغاء والتقاط إشارات العالم المتحول، مُفْتتنًا بصوت عبد الوهاب الدكالي في أغانيه الرومانسية، وبصوت لطيفة القاضي في كل نشرة من نشرات الأخبار على أثير الإذاعة الوطنية، وقلَّ أن يفارقه المذياع إلا لأمر طارئ أو قاهر، مثلما لا يفارقه الأتاي الذي أغناه عن حبوب الأسبرين إن شعر بإعياء وصداع في الرأس.

رأيتُ النُّور صباح الثلاثاء في فصل الشتاء من ذلك العام، وكانت الشمس تتسلّلُ خلسةً من بين الشقوق، وضربت طيور الدُّوريّ بأجنحتها للهجرة، وطلع من بين الأتربة التي تشقُّها المحاريث بخارٌ ذكيٌّ مكث في باطن الأرض لقرونٍ طويلة. أخذني أبي بين يديه يلحس لساني ويضمُّني إليه بِقوّة كأنّنا سنفترق بعد برهة من الزمن. أشار على من بباب الغرفة ألا يدخل على أمي وهي في وضع النُّفساء إلا أختها مليكة، فقد غدا لا يثق في النساء، وذكرى كبرى بناته التي ماتت في ظرف غامض طيَّ البال تخز جنبيه.

ضُربت خيمة في فناء بيت العائلة، واجتمع الأهل حولي في حفل العقيقة، وأكلوا وشربوا من الأطعمة ما لذّ وطاب، وبعضهم أشار على أبي بهذا الاسم وذاك. لكن أبي قرّر أن يُسمّيني على حين غرّة عبد اللطيف، وكان اسمًا نادرًا في هذه المنطقة من العالم.

درجْتُ يومًا على ظهر يوم، مُحاطًا بحدبٍ أبويٍّ إلى أن استوفيْتُ أيام ربيعي الثاني؛ ثُمّ قرّر أبي أن يرحل بنا إلى مدينة اليوسفية بعد أن اشترى بأحد أشهر أحيائها، فيلاج الراية، محلًّا وجعله مكتبة، وازدهرت أسهم تجارته وكسب ثقة المتعاملين معه. ولم تكن المدينة تبعد عن القرية إلا بنحو ثلاثين كلم جنوبًا، وقد اشتهرت باسم «الويجانطي» نِسْبةً إلى الفرنسي «لويس جانطي» الذي اكتشف منجم الفوسفاط بها في ثلاثينيات القرن العشرين، ثُمّ غدت مركزًا تجاريًّا يجذب إليه طبقة ناشئة من التُّجار والمهنيِّين.

كانت اليوسفية بالأحرى شبه مدينة، غارقة في هدير قاطرات سكك الحديد تتهادى حمّالةً بأطنان الفوسفاط، لكن أناسها

الطيبين بسحناتهم السمراء، الذين عُرفوا بالفروسية والرماية وتربية الصقور والصيد، كانوا يعيشون التهميش الظاهر في حياتهم اليومية، مثلما ظلّ عُمّالها المنجميون يعانون من أمراض مزمنة مثل الصمم والتهابات الجهاز التنفسي، وطالما سُمِعت أصوات احتجاجهم واهتزّت الأرض تحت أقدام نضالهم النقابي. ورُبّما بسبب هذا وذلك، ستشهد المدينة في تالي السنوات ميلاد جيل محبط.

أقمنا باليوسفية نحو العام لا أذكر منه شيئًا على الإطلاق. وفي ذلك الصباح المشؤوم، كما تذكر أُمّي بتأثُّر، حتى جاء الناعي يطرق باب المنزل، ويحمل إلى ربّته خبر موت زوجها الذي قضى في حادث سير خطير ليلة الأحد، بعد أن انقلبت به السيارة من جرف هارٍ في مكان يُسمّى (فم الجرانة) على الطريق بين مراكش وشيشاوة. كان مع اثنين من التُّجّار في اتجاههم إلى الطنطان للتسوُّق بالجملة.

نَجَيا هما من الحادث، في ما هو قضى للتوِّ بعد أن ارتطمت رأسه بأحد الصخور، وهو يحاول أن يفتح الباب ويسلم بروحه أثناء الدحرجة. وجدوه أسفل الجرف يضع رِجْلًا على رجل ويده اليمنى تسند خدّه كأنّه حيٌّ ويريد أن يتفوَّه بكلمة، ورُبّما قالها وصعدت إلى الملكوت الأعلى.

حزنت الأمّ لموت حبيبها الذي ودّعها وأودع في حِجْرها فِراخًا لم تنبت أجنحتها بعد.

واختلط شعورها المُدْمى بالخوف من المجهول الذي يتربّصُ بها كنَصْلٍ لامعٍ، وكانت لا تعرف القراءة والكتابة، ولا درجت خارج البيت.

لطم أخوَاه سعيد ومسعود الخدود، وهما يندبان زين الشباب.
وشقّا بجثمانه أوحال القرية لدفنه في مقبرة الأهل.
غرق الجميع في ذهول لا يُصدَّق.
ومن القرية من لم يثق في رواية موته، وأسرُّوا الشكوك بينهم.
عُدْنا أدراجنا إلى القرية، وحملني جدّي من أُمّي على كتفيه، وهو يدندن لي بأغنية حزينة هي أوّل مصدرٍ حقيقيٍّ يصلني بالشِّعر.

اليتيم وشركاؤه

عرفْتُ معنى اليتم واصطبرْتُ عليه، ظانًّا أن أبي سيعود يَوْمًا إلى أبنائه الثلاثة يحمل إليهم الثياب الجديدة واللُّعب والفواكه الجافة. لكن رحلة المعنى قد طالت لِـلَيالٍ كالحاتٍ، فلم يأت الأب ولا ظفرنا بالغنيمة. وكُلّما طال عهد اليتم، قلّت العناية بي من أهلي، وصار يُنْظر إلي بعيون الشفقة من كثيرين، وبعضهم ربت على رأسي وتحسر على رحيل أبي المُفْجع.

يَوْمًا على ظهر يوم، أدرجُ وأسقط. ألهو وأبكي. أمرض وأتعافى. ثُمّ سرعان ما تفتّحتْ عيناي على عالم أتخيّله أشبه بالسحر والخرافة: مساقط الماء، مواسم الحصاد الذي لم ينقطع، وما يعقبه من فرحٍ بالزواج والختان وسط أغاني العيطة وزغاريد النّسوة التي تخرق عنانَ السماء، صياح الصّبْية في الكُتّاب بآي القرآن، صرير أقلامهم على الألواح المرقوشة بهالات الصمغ، بيوتات الطين الواطئة التي تتحلّق حول فناء العائلة، فتنة الزَّرابي الموشومة بأنفاس الحُبّ والحياة، نبات الصبّار الذي يغمر الجميع بالغلال والظلال، ضباب الطرق

المتعرّجة إلى السوق الأسبوعي كلَّ أربعاء، خرق العوانس على شجرات التين طردًا للنحس، نداء النخلة السامقة من بعيدٍ وهي تحرس أنام القرية وأنعامها من اللصوص وقُطّاع الطرق. وفوق هذا وذاك، سذاجة الناس وغفلتهم تقرأهما من سحناتهم المتغضِّنة التي تنمُّ عن قسوةٍ وعراكٍ مريرٍ مع الوقت، أو مع الدنيا بتعبيرهم.

على هذا العالم الخصيب والقاسي، فتحتُ عيني ووجداني وتشرّبتْ ذاكرتي الطرية مئات الأصوات والصور والمرويّات والتمثُّلات مما كان يُحيط بي في الصيف والشتاء. ومددتُ نظري إلى النجمات يتلألأن فشربْتُ حتى ارتوى خيالي، وأحايين مددت يدي لأمسك بالخيط الذي يلمُّها من وراء الغيوم. وسمعتُ عن الله والشيطان بدون أن أفقه العلاقة بينهما، وتناهت إلى سمعي قصص الجنّ والعفاريت من أفواه الأم والجدّة، ومن أشهرها قصة «عيشة قنديشة» التي ما أن تشرع أمي في سردها بتثاقُلٍ بليغ حتى يهجم عليّ النوم. وأكثر ما شدَّني إلى القصة، رغم ما فيها من رعب ظاهر، ذلك الخيال الذي يغلف أطوار سردها ولا ينتهي عبر انتقالاته المفاجئة إلا عند مغزى ما.

وتحكي هذه القصة الأكثر شعبيّةً في التراث المحلي، عن عجوز شمطاء وساحرة شرّيرة تقضي معظم وقتها في دسّ الوقيعة بين الأزواج، والإيقاع بالرجال من وراء قناع امرأة فاتنة الجمال فتستدرجهم إلى وكرها وتضاجعهم قبل أن تجهز عليهم وتلتهمهم وتولغ في دمائهم، إلا أن ما يخيفها وترتعب منه هو مرأى النار

إذ تشتعل أمامها. فالسبيل الوحيد للنجاة منها هو ضبط النفس ومباغتتها بِنارٍ على حين غرة. وكان مجرد النطق بلقبها يجر اللعنة على ناطقها، مثلما كان يُفْزع الصغار من سماعه.

وتزعم بعض الروايات أن عيشة قنديشة شخصية حقيقية تنحدر من عائلة موريسكية نبيلة طُردت عائلتها من الأندلس، وعاشت في القرن الخامس عشر وأطلق البرتغاليون قبل تحريفه لقب الكونتيسة أو الأميرة عائشة. وقيل إنها تعاونت مع الجند المغاربة آنذاك لمحاربة البرتغاليين الذين قتلوا وشردوا أهلها، فأظهرت مهارة وشجاعة في القتال حتى ظنَّ البعض، وعلى رأسهم البرتغاليون، بأنّها ليست بشرًا وإنما جنّية؛ فقد كانت تقوم بإغراء جنود الحاميات الصليبية وتجرُّهم إلى ملاقاة حتفهم في الوديان والمستنقعات حيث يتمُّ ذبحهم بطريقة أدخلت الرعب في نفوس المحتلين الأغراب.

وكانت مثل هذه القصص العجيبة مَتْنًا ومَبْنى تُغْنينا عن أيّ كتاب مُصوَّر نعدمه أَصْلًا، وتُربّينا على ضبط النفس والصبر على الشدائد وعدم الانجرار وراء مصائر غير محمودة العواقب.

وفي سنيّ تلك، شكوْتُ من العيِّ ولم يُطلق الله لساني إلا بعد أن دخلت الجامع، وتهجّيْتُ بحروف منزل كتابه.

في الجامع الذي يقع وسط القرية، انتظمت في سلك التعليم الأولي، وأيُّ سلك هذا! وقد تجمّع فيه صِبْيةٌ تفاوتت أعمارهم وقاماتهم وغاياتهم من حفظ القرآن، ونتأت خدودهم من برد الشتاء ومشاقّ الصيف، وبعضهم تكرّش من أكل وسوء خلقة، وأكثرهم

من أبناء عمومة وخؤولة. وتجد بينهم من عُوقب فجيء به عُنْوةً، أو سقط في يد الفقيه تحت عيوننا الزائغة.

وما أن ترتفع حناجرنا بالقرآن مُتربّعين على الحصيرة، حتى تتعاظل أصواتنا فلا تُميّز أيّ آية يقرأ هذا أو ذاك إلا بشقِّ الأنفس. وقد حملنا بين أناملنا المرتجفة أقلامًا من القصب نظلُّ نُحكِّك بها ألواحنا الخشبية التي تتلألأ بحروف من صمغ حتى لا تكاد تبين. والفقيه السي أحمد يقعد قبالتنا وعينه الشزراء علينا، وعينه الأخرى تُكبُّ على البرشمان حيث يخيط جلابيب ويتفنّن في تزويقها، وكان ينتفع من بيعها لرجال القرية أو في السوق. وكُنّا إذا تعبنا من الصُّياح ونشفت حلوقنا، نُخْرج من تحت جيوب جلابينا القصيرة كسر الخبز الحافي المُدرّر بالقمح أو الدُّرة، ونبلعه بجرعات مسموعة من الشاي البارد الذي تُعبِّئه أمهاتنا لنا في قنانٍ من الزجاج حتى يحمرَّ لونه.

ولأشدّ ما كنْتُ أكره معاون الفقيه الذي يعرج برجله اليسرى لغلظته وسوء معاملته لي، فطالما ألحق بنفسي الأذى وامتدَّتْ عصاه الطويلة المصنوعة من الدُّوم إلى جسدي النحيل، حتى نفّرني من الجامع ومن القرآن.

وكان يوجد بإحدى غرف الجامع المبنية من الحجارة والطوب، ضريحٌ مُسجّى بقماش أخضر مُطرّز عليه بعض مصاحف القرآن التي انتثرت أوراقها الصفراء بخطّها المغربي هنا وهناك، وحوله كُوى مثبتة بالجدران عليها قطع شمع انتصفت أو نفدت بالكامل. قيل إنَّ الضريح لوليّ صالح سُمِعت عنه كرامات، وأيادٍ بيضاء.

في بداية الأمر ارتعبنا منه وتخيّلنا أنّ شبحًا سينهض إلينا من القبر في أيّ لحظة، ويخنقنا بِجُمّاع قفّازه، ثُمّ سرعان ما استأنسنا به فنمنا عليه وأشبعناه ضُراطًا.

وظللت أتردّد على الجامع عن مضض حتى ختمْتُ السَّلْكة على يد الفقيه، وحملني الصِّبْية على أكتافهم المتماوجة في جولة على بيوت القرية نجمع البيض وبعض الحنطة والشعير، بما يُشبه بَيْعةً لسلطان الطلبة وثناءً عليه.

وكانت المرّة الأولى التي نُودِيتُ فيها بالسُّلطان، وكان سلطانًا كسيرًا أُهين في عقر داره، هو يوم ختاني المشهود إذ ألبسوني جِلْبابًا وطربوشًا أحمر مع بلغة صفراء، واقتادوني إلى رجل غليظ يتطاير الشرر من عينيه، لم يفتح فمه إلا لمّا افترى عليّ بأنَّ عصفورًا يطير في الأعلى، وما أن رفعتُ رأسي حتى باغتني بآلةٍ حادّةٍ بترت الجلدة التي على الحشفة حتى انكشفت جميعها. بكيتُ بكاءً حارًّا، وأركبتني جدّتي من أُمّي على ظهرها تهدهدني بأغاني «جاه النبيّ»، رجاءَ أن يخِفَّ الألم. نزف دمٌ كثيرٌ وبدا عضوي منتفخًا أحمر اللون، فارتعبْتُ.

بقيتُ لأيّام أتأذّى من جرحي تحت نظرات الجميع، مُفرِّجًا بين فخذيّ شبيهًا بالبطّ في مشيتي بتثاقُلٍ. وأذكر أنّي جمعت نقودًا كثيرة واشتريت منها الحلوى وقناني المونادا، وتحلَّق حولي الأتراب من ذوي البركات.

بعدما انفضَّ الجمع، وسكتت الزفّة، سألتُ أُمّي عن العصفور:

- أين العصفور؟

مالت علي هامسةً:

- طار، طار..

- طار! إلى أين؟

- طار في السماء وهو يضرب بجناحيه أعلى فأعلى، وسيعود يومًا.

- إذًا، سيعود مع أبي.

- نعم، ومعهما الكثير من الثياب والحلوى والفواكه الجافة.

فيما بعد، ستخبرني أمّي بأنّ النوم غافلني تلك الليلة، وأخذتُ أهذي باسم العصفور وخُيِّل إليها كما لو أنّي الآخر أضرب بجناحيّ. بعد كُلّ هذه الأيام، صرت صائد الأجنحة الخفيَّ ألتقط الصدى الحاكي لأُربّيه بين كلماتي.

كأيِّ طفل قرويٍّ، توزّعتْ أيام حياتي التي وعيتُ بها بين ساعة وساعة؛ فكنت أرعى ماشية الجدّ، وأحتطب روث البقر للطهي وللتدفئة، وأجلب ماء الشرب من البئر بعيد الغور بحبل طويل يجرُّه حمارٌ لغاية معلومة. وأحيانًا كنت أخرج مع أقراني ومعنا من يكبرنا سِنًّا وخبرةً، لاصطياد الطيور بفخاخ نهيل عليها رقيق الرمل ولا نُظْهر منها إلا دودًا أصفر يركل في الهواء. وكان طائر الدرّاج أعز ما يطلب لسُمْنته وشهي لحمه، لكن اصطياده ليس سَهْلًا، فقد يتطلب منك الأمر وَقْتًا وصَبْرًا شديدي العنت، وأن تصدر صفيرًا رخيمًا يتهادى عليه فيهديه، راضيًا مرضيًّا، إلى الفخّ بعد أن يرمق الدود. فهو طائر يدرج بسرعة، وأيُّ نَأْمةٍ تصدر عنك تفوّتُ عليك فرصة التملّي في طلعته البهية بين الخضار.

ولم تخْلُ أفعالنا من «شيطنة»، فإذا أحسسنا بالجوع يحسك شراييننا تسلّلنا إلى بعض البساتين وأتينا كما الهمج على الغلّة من تين وعنب حتى نشبع. وإذا سمعنا بحفل زفاف بإحدى القرى المجاورة تسلّلْنا بين الصفوف مثل قراصنة عمي مُدّعين أننا من أقارب العروس حينًا والعريس حينًا، فنظفر بألذّ الطعام في صدر الضيوف. وما كلُّ مرة تسلم الجَرّة؛ فالمسخوط منّا من سقط في يد صاحبه أو من يخدمه عليه، فأيُّ جزاءٍ هذا الذي ينتظره من الضرب المبرح والسباب المهين.

وكنتُ أهوى الرسم والتخطيط بالفحم والجير، فأنثر رسوماتي الغريبة على الأبواب والحيطان وصفائح القصدير، وأحيانًا وقّعتُها باسمي بما يشبه براءة اختراع. وأقرأ الرسائل التي ترِدُ على الأهل من بعيد، وأحيانًا أجتهد في كتابة بعضٍ منها، بخوْفٍ وزَهْو. وكنْتُ أطالع بحماسٍ ما تقع عليه عيناي من مِزَق الصحف والمجلات التي كانت تقذفُ بها الريح إلى القرية، أو ممّا كانت تُلفُّ بها الحوائج المجلوبة من السوق الأسبوعي، وأجدُ في ذلك إمتاعاً ينمّي شعوري ويقدح مُخيِّلتي. فليس للكتاب حضورٌ بالمطلق، ولا وجدتُ أحدهم يقرأ فيه، فقد بدت الأمية مُتفشّيةً كأسراب الذباب في أيام الصيف.

لكن الطبيعة أتاحت لي برموزها وإشاراتها وإيقاعاتها أن أطالع أكثر من كتاب أنشره وأطويه، وأن أصغى إلى أكثر من موسيقى أتلذّذ بها وأنام عليها. فأنت بمجرّد أن تُقلّب عينيك في السماء، فأنت تقرأ وتتأمّل؛ وبمجرّد أن تسمع غثاءً من مكان قريب، فأنت تأنس بروح

تحول حولك؛ وبمجرّد أن يهطل المطر، فأنت تتنسم حَقْلًا بكامله من الدفء والألفة؛ وبمجرّد أن يحطَّ بالقرب منك طائر السمّان، فأنت تحاول أن تحاكيه بالتغريد والطيران.

وكان يتردد على بيت الجدّ من خارج القرية، شيخٌ ذو لحية بيضاء يُدعى الشافعي، وهو ممّن صحبهم أبي وأنزلهم الحظوة في مجلسه، لا يمنعه ورعه من أن يلاعبني ويمسح بكفّيْه على رأسي، مُتوسّمًا فيّ النجابة ومَيْلًا إلى المعرفة. ولم يأخذ أهلي وأقاربي ذلك بجدّ، حتّى سمعوا عن أقرانٍ من بني عمومتي المُتكرّشين، أنّ العربي الطيمومي، وهو صاحب رأيٍ بأحد الصحف الوطنية وكراماتٍ من داخل حلقته المشهودة بالسوق، قد تنبّأ لي بأنّي سأركب الطائرة كنايةً عن موفور النجاح والسعة، وذلك لعظم شأنها في ذلك الوقت. ولا أنْسى أنّي كنْتُ أُغْرم ببعض الفتيات راعياتٍ للغنم في الخلاء، أو مُلثّمات في الدروب يسحبْنَ عجائزهنّ قبل شعورهنّ، ولم يسمح لي وضعي ولا الأعراف الجارية في النهار بالبَوْح بمشاعري الوليدة. كانت الأشياء تمرُّ أمام عينيَّ باردةً وغامضةً، وكثيرٌ منها لم يكن يعني لي بأكثر مِنْ وَجيبٍ داخليّ.

صَبْرًا، أيّتها الذاكرة..

يَنْقُر البَرْدُ عُودِيَ عند (وراران)،
فأَسْمعُ شَيْئًا من الأَمْس،
ثُمّ الْحَصى
أَسْفل السّهْو
أعلى الندوبْ
هَكذا هي تبْرحُني في سُكون
ليْس تسْألُ عنّي الْمَدى كَيْف أَصْبَح،
والْكاظمينَ الزُّهور، وَصمْتَ الأُوَيْقات
عِنْد الْغُروبْ
كأنّ أصابعَ جدّي الّذي لمْ تُصافحْ يدِي يَـــدُهُ
ألْقَمتْها هواها الرّياحْ
جاءَ يَبْذر غرْبَتَه في الطَّريق

يُريدُ امْرأةً، وقطيعًا، وشاهِدةً مِنْ عَلَى التّل.
وقْتَ الْحَجيج أَراها كما هي
يمشطُ غُصَّتَها أهلُها الْبُسطاء:
نشيدٌ
وآلٌ
وَطِينٌ
وصمْتُ السماء
بِأرْضٍ بَراحْ
ما أجلَّك يا سِرُّ
ضاعفْ تلاوينَ رَقْصِك
وانْسَ يَديّ تُطالعُ شَاهِدةَ الجَدِّ
في ما تبقّى من اللّيْل
صَمْتًا
بِمَرْأى الغَريبْ!

تاريخ الهجرات

كان لِلّيْل عندي مهابة. ما أن تغرب الشمس وراء الحقول المترامية وتخفّ الحركة وتهرع الكائنات إلى مخبئها تباعًا، حتى أنكمش وسط جلبابي القصير في ركن مُنْزوٍ، فأغرق في أحلام يقظة تُكسِّرها أصوات الماشية وهي تجترُّ رزق يومها. وكنت أرفع عيني إلى السماء فأتخيّلها جَرّةً تسقيني، وأتساءلُ مرارًا كما لو كان (بالنسبة لي الآن) سؤالًا ميتافيزيقيًّا: هل سماء القرية تنتهي إلى حدّ ما؟ لكن مُهاجريها الأَوائل الذين خرجوا للتجارة أو للعمل، وما فتئ يتردّدون على أهليهم لمناسبةٍ أو أخرى، يخبروننا بأنّ هناك مدنًا كبيرة وجميلة تمتلئ بالأعاجيب والمغريات، ويُمطّطون لسانهم فيها تنفيسًا وتشميتًا. وكان اسم الدار البيضاء بمُجرّد ما أنْ يُذْكر حتى يجمع حوله حَشْدًا من سُذّج القرية وأفّاقيها الذين يسيل لعابهم بما يسمعون عنها، ومن بعض الشباب الطامحين الذي وجدوا في أشغال القرية عِبْئًا عليهم فسعوا إلى الخروج بأي ثمن يذّخرونه عند أمهاتهم، وقد يُدبِّرونه إما ببيع قطعة أرض من تركة، أو محصول زراعي من العام الفائت. وإن

لم يجد أحدهم ما يبيعه، باع نفسه للشيطان فسطا على بقرة يجرُّها إلى السوق الأسبوعي في جنح الظلام.

لم تكن القرية تبعد إلا بمسافة قريبة من الطريق الوطنية حيث تتراءى لك حافلات السفر وهي تتهادى ذهابًا وإيابًا بين مدينتي الدار البيضاء واليوسفية. وكان مُجرّد مرآها يدع الحلم بالهجرة متّقدًا في نفوس البعض، ويُسبّب عند الآخر مَغْصًا شديدًا لا يُداوى إلا ببخور الشبّة. بل منهم من يقضي ساعات من على تلّةٍ وهو يراقب تلك الحافلات المهترئة حتى الغروب كمثل من يشاهد فيلمًا رومانسيًّا تتخلله الدموع. وقد اصطبر المعطي على هذه الحال لأيّامٍ نَحْسات، حتى خلع نعليه ووضعهما تحت إبطيه، وجرى خلف إحدى الحافلات في صيف قائظ، إلى أن ضاع وانقطعت أخباره. وكان المعطي وحيد أمِّه الدغوغية التي كُفّ بصرها وداخلها الشلل من البكاء عليه، وقد وُجدت ميّتة بعد أن زحفت عن عتبة بيتها المتداعي بنحو ميلَيْن كأنّها خرجت تبحث عنه في جوف الليل. حدث ذلك سنة سبع وسبعين وتسعمائة وألف.

وكُنْتَ إذا سمعت كلاب القرية تنبح في جوف الليل، فاعلَمْ أنّ أحدهم، وقد تهالك على إثره فرد أو يزيد من عائلته، خرج يتعرض للحافلة تُقلُّه إلى الدار البيضاء، مُتخفِّيًا في جلبابه كشبح؛ وربّما قضى ساعة أو أكثر على قارعة الطريق، تتلامح أمام عينيه الهواجس مما هو آت، حتى يقفز على زعيق الحافلة المدوّي.

وتعود الحافلة أدراجها في المساء عَصْرًا، وإذا صادف أن توقّفت ونزل منها أحد ركابها، كثرت الظنون بالمجهول القادم، حتى إذا

ظهر شخصه بينهم تحلّقوا حوله يُشبعونه بَوْسًا ويمالئونه طمعًا في شيء مما يحمله معه من حلوى وفاكهة وتبغ رخيص، ويستطلعون ما وراءه من الأخبار بفضول وخبث.

وقد سُمِعتْ عن بعض من هاجر إلى الدار البيضاء وغيرها أخبارٌ طيّبة كانت تسيل اللعاب وتنفّس عن الكدمات، ومنهم من رجع بِخُفّي حنين وشِبْه عاهة وقصة حياة فاشلة مثل عبد المجيد الذي تدهورت صحّتُه بفعل امرأةٍ سحرت له، فيقضي سحابة يومه في ركن مهمل بين شجر الصبار ينفث دخان السّبْسي، ويشتم كلّ حيوان شارد يمرُّ به، ولا يعيى من أن يُري كُلَّ جالسه وتودّد إليه ألبومَ مغامراته في المدينة، وأحيانًا كان يبكي في داخله وهو يُقلِّبه حتى يغمى عليه.

وغير بعيدٍ عنه، ركن ولد الرقيّة في داخل جامع القرية يفرك حبّات السبحة ويهمس ببعض الآيات والأوراد، بعد أن قفل من هجرته الخائبة وأقفل عليها بصمت مريب. كان نعم الطالب بيننا قُوّة حافظة وسرعة بديهة، تَيتّم وأصيب بمرض مُتعفّن في رجله اليمنى أقعدها عن المشي سويًّا منذ صباه.

في الجامع الذي علت صومعته وطُلِي بمال أحد أبناء القرية الذين هاجروا إلى إسبانيا، صار ولد الرقية يؤُمُّ الناس وهم لا يزيدون على خمسة نفر. وكنْتَ إذا سمعت تلاوته في الفجر، تخاله النبيَّ داود يُرتِّل مزمورًا من مزاميره الأخيرة بين السهوب والوديان على مدّ البصر.

أن يحكي عمِّي سعيد

أخذت القرية تفرغ من ساكنيها عامًا بعد عام. فلم تعد الهجرة تُغري أفرادًا بعينهم، بل استهوت الهجرة أُسَرًا بكاملها بسبب سنوات الجفاف حينًا، وعدوى الحضارة الدخيلة حينًا آخر. باعت الأرض والدوابّ والمطامير وقلل السمن والنظرات المتجمدة في منظر غروب الشمس، وتركت الديار شبه أطلال تعبث بذكرياتها البوم والغربان. وأما الذين عاهدوها ألا يستبدلوا حُبَّها بحبّ، وأبلوا فيها البلاء الحسن ورابطوا فيها كحُرّاس دائمي الكُحّة طوال الليل، فقد كافأتهم إذ زادت غلَّتُهم عن ذي قبل، وفاضت مطاميرهم بالخير. يحتفلون بمواليدهم الجدد صباحًا، ويدفنون موتاهم في المساء، ولا (غالب إلا الله) كما علّقوها تميمةً تلعب بها الريح على مداخل بيوتهم.

كان عمِّي سعيد ممّن أخلصوا للأرض، فكان لا يفارقها إلا لهاتفٍ طارئ أو ضرورة ملحّة. لم يكن يملك قطعة أرض يحرثها، واضطرّ أن يخدم عند بعض مُلّاك القرية لفترة، بل قادته الفاقة أن يلتقط حَبَّ الحصيد من على الأرض حتى يسدَّ جوعه. وحكى لي

أنّه في أحد الأيام نهره أحد هؤلاء المُلّاك وشتمه في عرضه بمعيّة أُمِّه الجدة المحجوبة، وقفلا وهما يندبان ويبثّان شكواهما لله. ولم يبلع هذه الشتيمة، بل غصّت بحلقه حتى رزقه الله مع أنفته وصبره على الشدائد مالًا تأتّى له من امتهانه نقل البضائع والسلع بشاحنة (برليي) الحمراء الألمانية الصنع. اشترى العمّ أراضيَ كثيرةً ممّن كان يهاجرون، ومن بعض المُلّاك بمن فيهم صاحب الشتيمة الذي ضاقت به الحال وأتى إليه صاغرًا.

وهو مع تسامحه وطيبوبته ومرحه، ابتُلِيَ بامرأة مهذار أنجبت له أكثر من عشرة نفر. ثلاث بنات تزوّجن وهُنَّ قاصرات لكن ورثن عن أمِّهن الحذاقة، وسبعة أولاد ورثوا عنها شيئًا من الغلظة وسوء الطالع، ولم يشبهوه أباهم إلا في بعض الخِلْقة العاطلة. لم يسلم أحدٌ في غيبته من لسانها، وخصوماتها مع نساء القرية لا تفتر حتى تشتدّ لأتفه الأسباب. طالما قدّمت أبناءها وشهدت لهم بغير حقّ في مرّات، وتوسّطت لبعضهم عند أبيهم في قفيز من حنطة أو شعير يقايضه بعلبة دخان، وللبعض في امرأة إذا أنس القدرة في باءة، وللبعض الثالث في ثور إذا أفاق من نوم ثقيل ورغب في الهجرة، إلّا في قطعة أرض، فهذا ممّا كان يُغيظه فِعْلًا، ويكاد يورثه الفالج. لم يطل الوقت حتى أخذ أبناؤه يهجرونه واحدًا تلو الآخر، وأصغرهم في العاشرة، بعد أن أجرأتهم أمُّهم عليه ولجُّوا في الخصام.

أصاب العمّ الرعش فطلَّق الشاحنة، ووقف أكثر على الأرض يتعهدها بحبّات عرقه الساخن، وعلى قطيع ماشية يرعاها بما تيسّر

له من جهد لاهث. بقي وحيدًا يذرع الدار الكبيرة بعد أن انصرف عنها آل الوراري بقضِّهم وقضيضهم وتفرّقوا أيدي سبأ في البلاد، وتركوه يرعى تتمّة حلمهم في كل ثنيّةٍ من ذكريات الدار.

كانت الدار في أيامها الخوالي يسكنها من ثلاثين إلى أربعين نفرًا، وتتصايح داخلها الحيوانات بالخوار والغثاء والنباح والنهيق في شبه سيمفونية غريبة الألحان، وتغمرها أدخنة من أول الفجر حتى المساء لكثرة الماعون. تيتّمت الدار، وداخَلَ عمّي سعيد البرد والمجهول، وامرأته أخذت تظهر عليها العلل من الشيخوخة، وغير بعيد من غرفتهما الموحشة يُسمع خوار بقرة شبيهًا بعزف القانون بين يدي مجهول.

حُكي أنَّه ينهض أحيانًا من فراشه ويذرع الدار تحت ضوء القمر، وهو ينشجٍ بالبكاء ويهذي بأسماء من مات من إخوته وفقد فيهم السند مُبكرًا. عندما مات أبي حنا عليَّ وعلى أخويّ، وجعلنا مثل أبنائه داخل الدار الكبيرة، وكنتُ إذا زرته في عطلة الصيف يأخذني إلى حضنه، وهو يبكي: «لقد ضِعْنا فيه جميعًا».

ولأشدّ مَقْتًا عنده أن ينصحه أحدهم، ولو مزاحًا، ببيع الهكتارات من أرضه ويتنعم بمالها في المدينة. وفي إحدى المرات سمعْتُهُ يتحدث إلى ضيف أشار عليه بأن يحجّ إلى بيت الله الحرام حتى يغسل نفسه من الذنوب، فالموت خبط عشواء والأرض التي جمعها بعرقه لسنوات طوال، ستُتبدَّد في رمشة عين من ساعة موته: «معك حقّ. لكن خشيت أن أصير مثل هؤلاء الذين عادوا من الحجّ وهم قساة القلوب يتصرفون كملائكة مع أقربائهم قبل غيرهم». ويتنهد برطانته المعروفة: «الله يهدينا وخلاص».

سوق الأربعاء

في القرية، كان يوم الأربعاء مُقدّسًا بمعنى من المعاني، فهو اليوم الذي لا يمكن أن يتأخّر يومًا آخر. إنَّه يرتبط من الأزل في ذهن كُلِّ الأهالي بالسوق الأسبوعي. تشرق شمس ذلك اليوم الموعود مُبكرًا، وتتألسن أشعّتُها مع صياح الديكة، فترى جمهورًا غفيرًا من القرية ومن سواها قد امتطوا الحمير والبغال أو العربات المجرورة بها، ويمّموا بأوجههم جنوبًا. تجد القرية شِبْه خلاء في ذلك اليوم إلا من بعض الصبايا راعيات الغنم والحوامل خرجْنَ للحطب، وصبيةِ الكُتّاب الذين في عطلة، ومن القواعد الذين وجدوا عزاءهم في دخان السبسي ينفثونه بتراخٍ وهم يلعنون اليوم الذي وُلِدوا فيه.

وأما الذين ذهبوا إلى السوق فقد حمل كلٌّ منهم برنامجه، فهذا يقود ثَوْرًا، وهذه نفسها من الوحم في السفنج والحوت المقليّ وتتحسس صُرّتها من حين لآخر، وهذا الشيخ وامرأته يركبان بَغْلًا بالتناوب حتى يصلا خيمة الردّاد الذي يبيع كلَّ شيء من القطاني والملابس الداخلية حتى أقراص صداع الرأس، وذاك يمتطي حِمارًا

بعدلَيْن لابتياع العلف للماشية والعيال، وتلك جمهرة من النسوة ينكمشن في جلابيب وملاحف داخل عربة عارية يتبادلن الكلام ويلغين فيه، وكلٌّ واحدة منهُنّ ارتدت أجمل ما عندها.

وما أزال أذكر جدِّي بطوله الفارع وجلبابه الرماديّ الباهت، ما إن يأتي هذا اليوم حتى تجده قد هيّأ نفسه من الفجر للخروج إلى السوق على حماره، مَزْهُوًّا لهذا وذاك، ورافقته راكبًا أمامه حينًا، وراجلًا حينًا آخر. وكان أوّل ما يرتاده محلَّ الحجامة فيحلق وجهه وينزع الدم من جهة فوديه، ثُمّ يعرج على الجزّار فيبتاع كيلوغرامين أو ثلاثة من اللحم، وأضعافها من بائعي الخضار والفواكه، ولا ينسى أن يأخذ لي بعض الفاكهة الجافة، ولزوجته رابحة ما وصّتْه به من توابل وسواك وحِنّاء وبعض القماش لغطاء الرأس والظهر.

وكان -رحمه الله- يرسم على وجهه ابتسامةً مُشْرقةً ولا يُقصِّر في شيء إنْ كان أحد أبنائه المهاجرين أو الذي يشتغل في سلك الجُنْدية أرسل إليه مالًا عبر البريد. وإذا لم يجد إلا ما في حافظته الجلدية من دُرَيْهمات، فإنّه يقتصد في مصروفه، وأحيانًا يوشك أن يتعثَّر بين أوتاد الخيام المغروزة في الأرض من شدّة تدبيره له، ويأنف أن يمدَّ يده لأحد أو يقترض منه. وكان مُقاوِمًا حارب مع فرنسا في إيطاليا والهند الصينية وغيرهما، ولم يرث منها إلا التبغ الرخيص الذي مات به مَسْلولًا في آخر أيامه.

في سوق الأربعاء اصطفّت الخيام بكل السلع والمعروضات والمتروكات، وعلى أطرافه تتصايح الدواب بالنهيق والشحيج في

مواقف العربات المشهورة. ومن أمكنة أخرى، تصل إلى أنفك روائح رحبة الزرع، والحوت مَقْليًّا، والسفنج، والشواء، وروث الأنعام التي قيدت إلى المجزرة. والناس في هرج ومرج، يدفعون بالمناكب كأنّهم في يوم العرض الأكبر.

هو يوم حساب. بيع وشراء. شجارٌ وتراضٍ. سوق تفاهم.

وبعد العصر تُهلّ أولى طلائع العائدين من السوق إلى القرية مُحمَّلين بالأغراض والحاجيات في سلال الدُّوم وأكياس من الثوب الخشن، وقد أرهقهم التعب من المسير الطويل، كأنّهم جنود رجعوا بالغنائم من حرب غير مُقدّسة. وتجد الصبية قد اشرأبُّوا بأعناقهم، وإن لمح أحدُهُمْ بعض أهله ضمنهم هرع إليه مُطْلقًا ساقيْهِ الرقيقتين للريح، وللجوع الذي يحسك أمعاءه.

وما أن تستوي القعدة العائلية حتى تضطرم المجامر وتنبعث منها أدخنة الشواء المُخلَّل بالبصل والبهارات، أو أبخرة القدور الدسمة، فيعُمَّ السكون المهيب حتى لَتظُنَّ أن القرية في حالة طوارئ حقيقية بعد أن يُحظر التجوال فيها وتقطع اتصالاتها بالعالم الخارجي، ثُمّ يأتي الليل وقد سحب طيلسانه الكثيف على البشر والحيوانات، ولا يخرق صمته إلا الواحد من مغْصٍ أو كُحّة، والواحدة من كليهما أو من مخاضٍ فُجائي.

لم يكن الأربعاء يَوْمًا من الأيام، ولا سُوق تفاهم، بل عيدًا أُمَميًّا.

الخروج

عندما بلغْتُ سنّي السابعة، سنرحل نحن بدورنا. قرّرت أُمّي أن ننزح عن القرية إلى الخميسات، وهي مدينة صغيرة تبعد شرقًا عن العاصمة الرباط بنحو ثمانين كيلومِتْرًا، أنشأها الفرنسيون في ثلاثينيات القرن الماضي وجعلوا منها مركزًا لإعداد الجنود من أبنائها السُّذّج المتحدرين من عوائل أمازيغية تحيا على الزراعة ونسيج الزرابي ومواسم الفروسية خاصّةً، قبل أن تقذف بهم في الجبهة حيث يستعر أوار الحرب العالمية الثانية، ليحاربوا تحت لوائها الاستعماري. بعد الاستقلال، ستكبر المدينة بعد هجرة قروية واسعة من جهات المغرب الأربع.

نزح إليها قبلنا عددٌ من الأهل، وأكثرهم نزل بدور الصفيح على أطرافها. أحد أعمامي دُفِن بها، وأبي كان يتردّد عليها من حين لآخر، وخالتي زهرة أقامت بها بعد زواجها من الحاج لحسن أحد تُجّارها، الذي امتهن بيع السفنج واشتهر به في سوق الثلاثاء العامر. وكانت الخالة قد أخذت معها في إحدى زياراتها للقرية أختي التي تكبرني بعامين، حتى لا يفوتها سنُّ المدرسة وحتى تتعلّم على يديها

الحذاقة وفن الطهي، قبل أن نلحق بها نحن الثلاثة في أحد أيام الشتاء من عام تسعة وسبعين وتسعمائة وألف.

قدمنا إلى مدينة الخميسات عبر طريق طويلةٍ وشاقّة تخترق مدن الجديدة والدار البيضاء والرباط التي شدّتْني بشوارعها العريضة والمضاءة وبهرني بُهْرجها الكثير، ونزلنا ببيت الخالة أيّامًا حتى دبّرت لنا غرفة من أثاث بسيط في زقاق ضيق ملاصق لبيتها ذي الطابقين حيث التلفاز وَجْهًا لوجه، ورُبّما منه طالعت صورًا من عذابات فلسطين وأحداث الدار البيضاء لعام ثمانين وتسعمائة وألف.

وكان الحيُّ الذي أقمنا به لا يهدأ طوال النهار من أصوات الباعة ودوابّ العربات والمشاجرات الصاخبة، يعبر وسطه شارع طويل تصطفُّ على جانبيه محلّاتٌ تعرض السلع من كل نوع: الفحم، الدجاج، المواد الغذائية، التبغ، الخضر والفواكه، أواني البلاستيك والمتلاشيات. كما يعرض بعضهم من القواعد أمام بيته رِجْليه، لا يترك شاردةً تمرُّ دون أن يعلم مجراها ومرساها.

وأذكر أنّه في هذا الشارع وقعت لي حادثة سير كادت تودي بحياتي، فقد كنتُ مع بعض أترابي نلعب ونتسلّى على الرصيف حتى باغتتني شاحنة ورمَتْ بي نحو مترين أو ثلاثة، فَأُغْمي عليّ. حملوني إلى المستشفى على وجه السرعة، وقُدّم لي شيْءٌ من الإسعاف الضروري. حصل أنَّ صاحب الشاحنة من رعيل المهاجرين الأول، متقدم في السنّ، وأوشك أن يموت من الخوف لاعتقاده أنّي فارقت الحياة، وسيدخل السجن. وقد جاءت بناته إلى أُمّي بالنواح والترغيب حتى تنازلت عن متابعته قضائيًّا، فَيُطوى ملفٌّ آخر من سجلِّ الحياة الظالم.

اعتقدناه ضَرْبًا من الحلوى

تعافَيْتُ من الحادث، وأخذتني أُمّي وقتها إلى محلِّ التصوير، واشترت لي بعض الثياب الجديدة ولوازم القسم الابتدائي لدخول المدرسة. وكانت مدرسة ابن سينا تقع في شارع عريض حُفَّ جانباه بأشجار الأوكاليبتوس، ويلاصقها من اليمين مستشفى المدينة الذي تظلُّ صفّارات سيارة إسعافه الوحيدة تنذر طوال النهار، ولطالما أُصيب التلامذة بنوبات وحالات إغماء من جراء ذلك الصفير؛ بل قد نصادف عند الخروج حَشْدًا من النساء الأمازيغيات يبكين ويلطمن الخدود، فنتأثّر لحالهنَّ وننشج بالبكاء.

وكان في باب المدرسة بائع الحلويّات المشهور باسم تيبيجّا، ذو السحنة المراكشية، سرعان ما يُنْسينا هذه المواقف المأتمية الطارئة، فيبهجنا بما لذّ وطاب من الطعام المُحلّى، بقفشاته ونكاته الهزلية وبهيئته غريبة الأطوار. ويوم سمعنا بخبر موته، أدركنا أنَّنا افتقدنا بهجة النهار، وأنّ جوار المستشفى للمدرسة لم يكن أمام عقولنا الصغيرة إلا تَلْخيصًا لمعنى تلك اليافطة التي أول ما نواجهه ونحن

ندلف إلى الساحة: اطلبوا العلم (الذي اعتقدناه نَوْعًا من الحلوى) من المهد إلى اللحد.

ولا أنسى مُعلِّمتي الأولى بالمدرسة، حليمة الحمقاء. امرأةٌ في ميعة الشباب، لكن شرًّا وبيلًا يرين على حياتها. تدخل الفصل وتتهالك على مقعدها في سهومٍ مريب. وما أن تشرع في الدرس حتى يحدث التلاميذ الشغب عن سبق إصرار وترصد، ويجعلون من مقاعد الفصل الدراسي ملعب كرة ومن حصصه مقالب ضاحكة، ويكاد عقلها يخرج وهي تصيح بنا بأعلى صوتها، ولا تجد من حيلةٍ سوى أن تترك الفصل، متوعدة إيّانا بالعقاب الشديد.

وكان يداخلني شيء من العجب وأنا مُسمَّرٌ في مقعدي الخشبي، أقارن في نفسي بين هذه المرأة المسكينة وبين معاون فقيه الكتاب الفظّ الذي تسبق عصاه الطويلة فَمَهُ.

ساءت الحالة النفسية للمعلِّمة، فقرّرت إدارة المدرسة أن تُسْند إليها عملًا آخر خارج الفصل الدراسي، وأتى بعدها من أنقذنا من سنة بيضاء. وأذكر أنّ عطائي داخل الفصل الدراسي كان محطّ احترام، فما كنْتُ اكتسبته من الجامع بالقرية قد ميّزني عن سواي تَحْصيلًا وقراءةً وخطًّا.

وأما من اليسار فقد حاذَتِ المدرسةَ الخَيْريّةُ وهي دار لإيواء الأيتام والعجزة، تكدّست بيوتاتها البيضاء على بعضها البعض، فما أن تدلف إلى ساحتها حتى ينتابك خوف غامض كأنّك داخلٌ إلى السجن. ولا أعرف من أشار على أُمّي من ذوي القربى بأن تدخلني

إلى هذه الدار، فقد وجدت نفسي وقتها وَجْهًا لوجه أمام فصيلة ثانية من البشر يقوم عليهم أفظاظٌ غلاظ الطِّباع، ولكن لحسن الحظِّ لم يكن الوقت إلا كلمح البصر أو خلسةً مختلس، إذ سرعان ما تسلّقْتُ سور الدار وفرْتُ سالِمًا بجلدي وعقلي. ولما وصلت -كأنّ يدا ما رحيمة قادَتْني إليه- منزل خالتي حتى تفاجأ الجميع، وحمدت أُمّي الله أن عاد ابْنُها إليها كأنَّما أُكْرِهت على الأمر.

سأقضي نحو العام ونصف العام في هذه المدرسة، ذاهبًا وآيبًا في طريق ليست قصيرة ما أتاح لي لجسدي النحيف أن يتمرّن على رياضة المشي، ولمُخيِّلتي أن تطعم بناتها حبّات الكرز لشتاءٍ آتٍ، ولعينيّ العزاء في أنّ الحياة لا توهب فحسب، بل تبنى بشقّ الأنفس. فالمدينة كانت مسرحًا لحوادث ومباهج ومهازل طوال النهار، وحتى في جوف الليل تتناهى إلى أذنيك آهات المخاض الصعب من أمكنة مجهولة.

رغم فرح اكتشافي للعالم الجديد ومفاجآته، وقفْتُ على معنى أن تكون مسؤولًا في أيّام العوز، قبل أن أشبّ عن الطّوْق. ربّتْ فيَّ الحاجة الجدّ على حساب اللعب، وسرقت مِنّي البشاشة لصالح الحزم والتأمُّل في البعيد. إذا سبق وكنا سعداء في القرية، لا يمكننا أن نكون سعداء في أي مكان آخر، ولا حتى في القرية نفسها.

كانت أيام إقامتنا الأولى صعبة، فقد كان الغلاء يلهب جيوب الفقراء في كل شيء، وصار شائعًا أن تسمعهم يتأفّفون من قهر الزمان وغلبته، ومن رفع الدولة يديها لمساعدتهم. وكنت أقرأ في عيني أُمّي حيرتها من الواقع الجديد ومطالب معيشه اليوميّ؛ فالمال

الذي تحصّلته من تفويت مكتبة الأب والسلع والأرض لأبناء العمومة كان بَخْسًا يكاد ينفد، والحاجيات التي استجدّت أو في الطريق فوق ما يطيقه كاهلها. كان أَوْلى بها أن تخرج إلى العمل بعد أن رمت عنها غفلة القروية وحليها الثقيل، فاشتغلت عاملةً بالنادي النسوي، ثمّ سرعان ما زَوَّجها الحسن السفانجي زوج خالتي زهرة برجُلٍ كَهْل طلبها منه على سنة الله ورسوله.

لم تتقبّل أن يدخل رجل غريب في حياة أبنائها، فتردّدت بعض الوقت، ثُمّ قبلت شرط أن يخدمها وأبناءها تحت سقف واحد. وحرامٌ ألّا تستمتع المرأة بحياتها في ريعان شبابها، وفي مثل جمالها الذي تتربص به العيون.

كان الرجل، واسمه محمد، من رجال المقاومة ضد المستعمر الفرنسي، ينحدر من العاصمة وله فيها زوجته وأبناؤه منها إلا واحِدًا كان يعيش معه ويشتغل مُعاوِنًا لطبيب أسنان. عمل بإحدى مستشفيات المدينة لسنوات، قبل أن يتمَّ تنقيله إلى مستشفى سيدي علال البحراوي، فسنحت لي السانحة أن أنتقل للعيش في هذه البلدة التي تقع على الطريق الوطنية بين الخميسات والرباط، بما يُشْبه خلاصًا لي على الأقلّ.

يتبدّد بالتقسيط
مثل غيمة مكبوتة

رعيْتُ بأمّ عينيّ وشغاف قلبي صور الجمال والسحر في ما حبا الله هذه البلدة المخفورة بأشجار البلّوط السامقة والأضرحة العامرة والوديان الجارية من كثرة العيون ووفرة الغَلّة وبسطة الحال بين ساكنتها.

وسط هذه المساحة المترامية من البهاء الندِيِّ، أخذت أُحرِّر معنى طفولتي المستلبة، وأُشْبع رفقة أقراني من الحيِّ والمدرسة أيّامًا ضاعت مني باللعب والترفيه والمغامرات الطفولية. فكُنّا مثل عصابةٍ من الأشقياء نقضي ساعات الفراغ في غابة الأوكاليبتوس نتسلى بين أغصان أشجارها المُدلّاة بألعاب الكاوبوي وطرزان، وإن أحسسنا بالجوع تطاولت أيدينا إلى أشجار البلُّوط على الطريق الوطنية فغنمنا من طعمها اللوزي، أو تسلّلْنا على أطراف أصابعنا إلى بساتين البرتقال فتلذّذنا بعصائره، بل خرجنا منها مُحمَّلين بأكياس البلاستيك كأنّها في ملكيّتنا، وقلوبنا تكاد تنخلع مخافةَ أن يمسك الحارس بأحدنا في أيِّ لحظة، ويُوسِعه ضَرْبًا بالنيابة عنّا.

وعلى الطريق الوطنية كنا نقتعد جذع شجرة مقطوعة أو نسند جدارًا مهترئًا، ونحن نتملّى الغادين والرائحين من الرُّكّاب إمّا على سياراتهم الفارهة ذهابًا وإيابًا إلى الرباط العاصمة وقد أجلسوا في مقاعدها الخلفية الكلاب والقطط، وإما على الحافلات الجديدة التي تحمل سُيّاحًا لا يجدون حَرَجًا في أن يلتقطوا لنا صُورًا، ورُبّما أدَّوْا لبعضنا قِطَعًا نقدية، وإما على الشاحنات الكبيرة التي كان سائقها ما أن يتوقّف لقضاء حاجة حتى أن نصعد سُلَّمها الخلفي ونغنم منها ما يُؤْكل أو يُشْرب. ولا أزال أتذكر أن إحدى هذه الشاحنات كانت ستدهسني مثل أيِّ نملة وأنا أقطع الطريق، وتُسجَّل الجريمة ضدّ مجهول، ولكنها لطيفة من لطائف الله الكثيرة.

وفي وسط البلدة كان يوجد صهريج ماء يتدفّق طوال النهار، جعلنا منه مسبحًا مفتوحًا نرمي بأجسادنا العارية فيه، ونعبث بمياهه بمرأى المارة. وقد تمتدُّ أقدامنا إلى نهر أبي رقراق في خلوته وسُجوِّه، فضربنا في مائه الأزرق بأيدينا وحواسّنا الوليدة. ورُبّما جلسْتُ مرّاتٍ على أحد تلاله أتأمّل فيه وقت الغروب وفي المشاهد الآسرة التي حوله وقد زانها بحدبه وموسيقاه.

كما كان لنا في لعبة كرة القدم جولات وصولات، إلى درجة أن صار لدينا فريقٌ نُنافس به فرق الأحياء المجاورة. وقد غذّى ولعنا باللعبة متابعتنا لبعض مباريات كأس العالم التي جرت بإسبانيا عام اِثنين وثمانين، وانبهارنا بالأسطورة الإيطالي باولو روسي الذي قاد فريق بلاده إلى الفوز بهذه الكأس أمام البرازيل. وكُنّا نتنادى بأسماء

بعض مشاهير الكرة ونقلّدهم في حركاتهم وتمريراتهم للكرة، مثل: سقراط، زيكو، روبيش، بول برايتنر، دينو زوف، بلاتيني.

ولا أنسى أنّ كبيرنا شَيْطنةً اِقْترح علينا جمع بعض المال من المشجعين لشراء لباس فريقنا الموحد، فأخذنا نتجول في بعض أحياء البلدة بصينية، ونتوسل إلى السابلة وإلى صاحب هذا المحلّ وذاك لمساعدتنا ببعض الدريهمات، حتى إذا اجتمع لنا قدْرٌ من المال جاء لصٌّ على حين غرّة وخطف الصينيّة منا، ونحن على أثره نتصايح كالبلهاء لا نلوي على شيء. ولم يكن اللصُّ إلا الشيطان صاحب الفكرة الذي ضبط وهو يبيع الصينية لتاجر الخردوات، وباع معها آمال أُمّة.

وقد أتاح لي الصف الدراسي واجتهادي فيه أن أتعرّف، بعد كتاب الله، على كتُبٍ أخرى، وفي مقدمتها القصص المصوّرة التي كانت تقذف بي في أحلام اليقظة والعوالم العجيبة، ولاسيما قصص محمد عطية الإبراشي، مثل: أطفال الغابة، السلطان المسحور، الأميرة الحسناء، الأميرة والثعبان، العصفور المغرور وقصص أخرى.

كما كانت لنا في سلسلة «تلاوة اقرأ» عبر سنوات السلك الابتدائي محكيّاتٌ مُصاغة بأسلوب مقتضب وسلس لصاحبها أحمد بوكماخ، مثل: أحمد والعفريت، زوزو يصطاد السمك، سروال علي، الشعب والحكومة. وأيّ متعة، وأي فسحة كانت تتيحها لنا هذه المحكيّات التي لازمتنا ملازمة الركوة للغريب. ولم يكن أحمد بوكماخ الذي لم نلْتَقِ به وجهًا لوجه سوى معلِّمنا الأشهر، ولم

يكن يتصوّر يومًا وهو يحاول تأليف كتاب لتلاميذ قسمه أنّه سيصبح لوحده مدرسةً وطنية تخرّجت منها أجيال مُتعلّمة بعد الاستقلال. فقد كان يؤلّف، ويترجم ويقتبس من روايات أجنبية من الشرق والغرب مستمتعًا بروحٍ فَكِهة وذكاء نفّاذ، قبل أن يُضحّى به لصالح مدرسة التخليط.

وقد ثقّفتْ مثل هذه القصص والمحكيّات أسلوب كتابتي وهذّبت وجيب مشاعري الداخلية، بقدرما زرعت في نفسي قِيَمًا أخلاقية واجتماعية أعدْتُ على ضوئها ترتيب علاقتي بالمحيط الذي كنت أتحرّك داخله.

مثلما واجهْتُ لأوّل مرّةٍ نُصوصًا من الشِّعر في مادة المحفوظات. نعم، الشِّعر. لم يحدث في أذني رنينًا خاصًّا، ولا بادرتُهُ بالتحية كأيّ ضيف ثقيل. فقد كان المنهاج التعليمي يسيء إلى الشعر وغير الشعر. كان أجمعنا بلا استثناء يحفظه عن ظهر قلب، لا عن فهم وتذوُّق. غير أنّهُ من خلال كثرة مطالعاتي هنا وهناك، تفتّقتْ موهبتي في موضوعات الإنشاء التي كنّا نأتي بها كتمارين مدرسية، حتى أسرْتُ بمُخيّلتي وخطِّي الجميل أساتذتي وأترابي في الفصل من الحسناوات والكسالى معًا. فكنت محطّ احترام وثقة من لدن أساتذتي الذين قدّموني إلى الصفوف الأمامية، بل إنّ بعضهم أوكل لي حصة دراسية بالنيابة عنه لطارئ قاهر أو سفر خارج البلدة، وقد يدفع إليَّ بإجابات الامتحان لأصحّحها معه.

وعبر سنوات السلك الابتدائي التي قضيْتُها في مدرسة سيدي علال البحراوي، كان البرنامج التربوي متوازنًا جمع بين التحصيل

والتنشيط والترفيه، فلم يكن يمضي العام دون أن نخرج في نزهات مرفّهة إلى غابة المعمورة، ونلعب الكرة بالساحة التي تحلّقتْ حولها فصول الدرس، ونشارك في أنشطة المدرسة لمناسبة وطنية أو دينية. وما زلت أذكر كيف اقترحتُ على مُعلِمي نصًّا مسرحيًّا هزليًّا (سكيتش) -قد يكون أوّل نصٍّ كتبته- فشجّعني عليه. ولما أخذت أُمثّله بمعية بعض لِداتي، كنتُ أرتجف من الخوف بمرأى من الناس الذين احتشدوا قبالة خشبةٍ صُنعت من مقاعد الدرس، ولولا مشهد الجلوس والأكل في النصّ لسقط عنّي البنطلون واكتمل الهزل.

وإن كان لي أن أذكر شيئًا يصِمُ المدرسة بِعَيْب، فقد يكون مطعمها المشهور الذي صار مضرب مثل على التقشُّف وملاطفة الجوع.

وكان المعلم إن أراد أن يعاقب أحد كُسالانا هدّده بالمكوث في المطعم ليوم كامل. فأنت ما أن تدلف إليه حتى يزكم أنفك خليطٌ من الروائح، وترث برد المفاصل من طول الانتظار، إذ تظلّ ناشرًا رجليك من على كرسيه المهترئ قبالة طاولة مديدة كأنّك تفاوض الجوع على الجوع، ثُمّ يبغتك القائم عليه «بالأكل يتبعه الذبّان»، وأيّ هذا الأكل الذي يستقبلك في موكبٍ ملكيٍّ مهيب.

ولا يزال إلى اليوم طعم حليب الخوان الألمنيوم على طرف لساني يتبدّد بالتقسيط مثل غيمة مكبوتة، ورُبّما تكون البَحّة ورثْتُها منه.

وجزاء عطائي الطيِّب خلال هذه السنوات، أذكر أنّي كوفئْتُ في إحدى المرّات بكتابٍ عن الملك الحسن الثاني بغلافه الأحمر المُقوّى وصوره الكارتونية. ولطالما فتحتُ هذا الكتاب بين يديّ

دون أن أفقه شيئًا ممّا فيه، حتى يأتي النوم ويأخذني منه ومن وساوس آخر الليل.

مضت السنوات الثلاث التي قضيْتُها مع عائلتي الصغيرة في هذه البلدة من أجمل أيام حياتي، فقد تحرّرتُ من ثقل الشعور باليتم ومن وطأة الخوف. كان المنزل الذي سكنّاه دافئًا يتسع لساعات فرحنا وأحلامنا وثرثراتنا، وكانت تلاصقه من اليسار حديقة صغيرة بشجرتي عنب وزفزوف يتيمتَيْن طالما تفيّأْتُهما وأسررْتُ إليهما بأحوالي، وهززْتُ بجذعيهما فآكل حتى أشبع. ورُبّما هنا كنتُ أدندن بأغنية جدّي القديمة، وأوجِد لها لَحْنًا من شجني الكظيم.

كانت الأيام هادئة في جوّ صحو ورائق، وبين جيران طيّبين عاملونا كأفراد من عائلتهم، فكُنْت أدخل بيوتهم بلا استئذان، وبين أبنائهم أشاهد من التلفاز قصص الأطفال الكارتونية والمسلسلات المصرية الحزينة التي لا تنتهي.

ولم يُعكِّر صَفْو هذه الأيام إلا نُواح ذلك اليوم الحزين الذي مات فيه زوج أُمّي بعدما شدَّ الربو بخناقه. مات بدون أن يخبرنا بذلك. لم أتأثّر بموقف موت مثل هذا؛ فقد جاء أبناؤه من العاصمة يبكون ويولولون بالحنجرة الشجيّة الحارة أمام باب البيت، وكانوا قد شبُّوا عن الطوق وصاروا أَهْلًا لكل مسؤولية. ألقوا النظرة الأخيرة على وجه أبيهم، وسارعوا لترتيب إجراءات دفنه في مقبرة الشهداء بالرباط. بقيتُ مشدوهًا، لم أدمع مثل دمعهم، لكن غُصّةً كانت تشرق بحلقي، فرُبّما لمعت في روحي أشباح ميّت آخر ما زلت أنتظر عودته مُحمَّلًا باللعب والفواكه الجافة!

لقد سقط الرجل كجدارٍ أخيرٍ على الأرض التي حملنا إليها بحُنوّه وحدبه الأبوي، وترك ابنته جميلة التي أكملت ربيعها الأول وديعةً بيننا، لتشتغل أُمّي من جديد في معمل النسيج كأيّ أسطورة كُتِب عليها أن تعيش الوحدة مرّةً أخرى، ولكنها لا تُملّ من مفاجآت السرد وتوالي البرق فيه.

لمّا نِلْتُ الشهادة الابتدائية، بعد مقام الإمتاع والهناءة، عُدْنا أدراجنا إلى مدينة الخميسات، وقد سبقتنا إليها حالة الترقُّب وسياسة التقويم الهيكلي سيئة الذكر.

حريق في السماء

عند عودتنا صيف عام أربعة وثمانين وتسعمائة وألف، صادفنا حريقًا مَهُولًا شبَّ في طرف من غابة المعمورة على الطريق الوطنية بين سيدي علال البحراوي وتيفلت، وكُنّا أنا وأخي الأصغر نشرئبُّ بعنقَيْنا الدقيقين إلى ألسنة اللهب من الزجاج الأمامي للشاحنة التي تُقِلُّنا، في ارتعابٍ من أن تمتدَّ إلينا مع متاعنا الزهيد.

سمائي الثانية بعد سماء القرية، بدت زُرْقتها مثل عشٍّ دبابير وهي تتوارى خلف أدخنة الدخان الكثيفة؛ السماء التي أضاءت نجماتُها لَيْلي البريء وكأنّها لا ترضى أن أبرحها مُتستِّرًا على الأحلام التي أدوعَتْها في حِجْري. وخُيِّل إلي أن العصافير تختنق فتسّاقط مع الرطب المتفحِّمة على الأرض بلا حراك، ثُمّ أسمع أشجار البلُّوط تعوي في سموقها المهيب وسط زعيق سيارات الإطفاء التي تهرع إيابًا وذهابًا إلى المكان المحروق.

وتساءلْتُ مع نفسي في حيرة من يتسلق نباتًا شوكيًّا: فيمَ النار إذا كانت تأتي على الأخضر واليابس وتخيف الأطفال؟ ما ذنب العصافير أن تختنق وهي بعد لم تكمل تغريدها؟ هل النّارُ عقابٌ من الله؟

ولم ينتشلني من حيرتي إلا صوت سائق الشاحنة الجَهْوريّ الذي كان يتحدث إلى خالي في قُمْرة القيادة، بانفعاليّةٍ شديدة:

مِرارًا تحدث هذه الحرائق. حرامٌ أن تضيع في رمشة عين خيرات الغابة بسبب تهوُّر أحدهم. هذه ثروة وطنيّة من واجبنا الحفاظ عليها كما يخبروننا من التلفزيون.

وسأله خالي الذي هاجر للتوّ من القرية، في سذاجة ظاهرة:

ثروة وطنيّة! هل هذا نوع من الأشجار في الغابة؟

وردّ عليه السائق في ثقة:

يقصدون أنّ الغابة في ملكنا نحن الشعب، يعني أنا وأنت (والتفت إلينا وراء المقصورة) وهذين الغلامين وأمّهما المسكينة.

وقاطعه الخال كأنّه اكتشف كنزًا، وكان لا يزال يتفوّه:

ولكن حتى الآن لم يصلنا من هذا الملك (فْرانَكْ)، أو على الأقلّ لا نعرف كيف نُحصِّله.

ورأيتُ السائق يستدير إليه هازئًا:

حتى يأتي الدور عليك وتأخذ نصيبك من «صندوق التوفير الوطني».

ثُمّ سكت السائق عن الكلام، وأخذ يُبطئ سرعة المُحرِّك بشدّة إلى أن ارتطم رأسي بإطار النافذة، بعد أن رمق في عرض الطريق حاجز شرطة.

وداخلني العجب أن تعود هذه الغابة إلى ملكيّتنا، وإذن سنغتني ونسكن قصرًا ونشتري أحسن الثياب والأطعمة والكتب، ولن نجوع بعد اليوم. وندّتْ عني ضحكة خافتة وأنا أتذكّر كيف يمكن أن تُزهق روح من أجل شجرة صُبّار يابسة في القرية، فما بالك بغابة بقضِّها

وقضيضها. ثُمّ أتاني هذا الخاطر السائل على حين غرّةٍ فوخز جنبي: ولكن من يقسم شجرات الغابة؟ وأين اختفى عندما كانت أسناننا تصطكُّ من برد الليالي القارس بمقربةٍ منها، ونعدم ما نتدفّأ به؟

كانت رائحة الدخان لا تزال تصلنا من بعض شقوق الشاحنة، وتوقظ فيّ الشعور بالذنب، ثُمّ استفقْتُ على زعيق الشاحنة وهي تدخل بنا دخولًا رسميًّا إلى مدينة الخميسات عَصْرًا، ونحن نتفصّد عَرَقًا. وأخذت تخترق الشوارع التي نفذت منها رائحة «الزفت» وروث بهائم العربات بسبب الحَرّ الشديد، وانعطفت يسارًا إلى ممرٍّ مُتْرب لن ينتهي بها إلا على عتبة باب منزل الخال حيث أقمنا لأيّام في حيٍّ طلع في غفلة من عيون السلطة بعد توالي الهجرات على المدينة التي لا تحمل إلا اسمها.

ولا أعرف إن كانت الشاحنة تُقلُّنا بالفعل إلى ألسنة اللهب، اللهب الآخر الذي يلفح المسامّ ببطء. ولا أعرف إن كان حريق الغابة قد غشّى سماءً وقذف بي في المجهول أبحث عن سماء أخرى؛ سماء بلا دخان.

عرب وأمازيغ

في هذا الحيّ الطارئ الذي بُنيت بيوتاته من الطُّوب أو الإسمنت وسُقّفت بالصفيح، كُتِب لي أن أعيش وسط عائلتي نحو ثلاث سنوات هي أصعب أيّامي على الإطلاق، فقد غابت عنّي نجمات السماء، أو على الأقلّ توارَتْ خلف غيوم حياتي المُلبَّدة.

كان حيًّا خطيرًا وغير مدينيٍّ وروحه أبدًا على كفِّ عفريت. ففي النهار هَرَجٌ ومَرَجٌ من كثرة الماعون والعيال، وخصامٌ وسِبابٌ بين النساء لا ينتهيان إلا بمشهد عراك الديكة، واقتتال على أوراق لعب القمار. فقد هانت العزائم من بطالة وخمول. وأما الليل فيهجم مُبكّرًا بعد أن تخفَّ الحركة لتفسح درب العذاب لخطوات الأفّاقين الذين لم يُصدِّقوا أنهم باعوا الأرض، والسكّيرين الذين عادوا للتوِّ من إحدى حانات المدينة وهم يرفعون عقيرتهم بالكلام البذيء لا يقطعه إلا ارتطام الزجاج بالأرض، فينزف وريد الليل بالغناء والسأم.

أهالي الحيّ قرويُّو السمت والسلوك، تُميِّزهم من لباسهم ونظراتهم ورطاناتهم. وقد حملوا معهم من قراهم القريبة والبعيدة التي توالت

عليها سنون الجفاف، أثاثَهم الرخيص وأواني طَهْيهم وشرابهم من الفخار وكلاب رعيهم وقصصًا عجيبةً لا يملُّون من تكريرها، وحملوا من الأرض نظرة الوداع الأخيرة. وتجد الكثير منهم أعادوا إحياء الجيرة السابقة، واستلذّوا نُباح الكلاب المتقطع، ولكن بلا أرض، بلا غيمات تسحل شهوتها العظيمة على الأرض.

وكانت لهؤلاء، عربًا وأمازيغ، قدرةٌ عجيبةٌ على التأقلم مع ظروف الحياة الجديدة رغم قساوتها وشدّة شظفها، وعلى التعايش الحذر بينهم ومع غيرهم من الأحياء المجاورة. ولم أَرَ فيهم عصبيّة ولا ولاءً عنصريًّا لهذا العرق أو ذاك؛ بل إن الأمازيغ كانوا أهل سماحة وكرم عاملوا من أتى إليهم من البلاد البعيدة بأخوّةٍ يمليها واجب الوطن والدين والإنسانية. وقد تعلّمتُ منهم بساطة العيش وطيب العشرة والصبر على الضيم في أحلك الظروف.

وهُمْ ما إن وصلوا إلى المدينة حتى انتشروا في الأسواق للرزق وطلب القوت، وفيهم نساءٌ مناضلاتٌ خرجْنَ للعمل بشرف نادر في معامل النسيج وحقول الياسمين، أو لبيع الرغيف في وسط المدينة وأمام واجهات المقاهي. وكانت الأُمّ بينهُنَّ تغدو بهمٍّ وتروح بآخر، وكان مثل هذا الهمّ يأكل من شبيبتها ويسلبها ابتسامتها شيئًا فشيئًا، ولم تكن تُبْدي أمامنا شكوى ولا شعورًا بالضيق، إلا أننا نقرؤه من سحنات وجهها العريض فنزداد تعلّقًا بها.

العلّيق الذي ينمو في حجر أُمّي

بِجلبابها الصُّوف،
بِالوَشْم مِنْ تُهْمة الشِّعر،
بِالْغَيْم يبرقُ من محجرَيْها،
بِأجنحة الماءِ يجرحه الشَّوْك،
بِالوَرْد يَنزفُ أَطْولَ ممّا نُتمْتِم،
تذرعُ
أَرْضًا من الأمْسِ
أَرْضًا من اليوم
أَرْضًا من الغدِ
مثل متاع بريدْ
ولكن
تَظلُّ

تُظِلُّ الهواءَ الذي حَوْلَنا،
ثُمَّ -إذْ هي تنعسُ-
نسمع عَزْفًا غريبًا من الدّاليهْ
فقد صعد الضائعونَ إليها
وقد عرج الله لَيْلًا عليها
فأيُّ الأغاني
صَداها البعيدْ؟
مُنْذ أن يطلع الفجر
منْ ثلمة الأرض
مِنْ سأم الوَرْد
كُنّا نقول لها:
«رافقتك السلامة يا أُمّنا.»
طيلة الكَدْحِ
بين المدينةِ والنَّفْسِ
كانت تُكِبُّ على وجهها
وتُردّدُ لَحْنًا مع الرِّيح
لازمةً بعد لازمةٍ
وعلى الوَشْم
مِنْ وَهَج الشّمْس
تَنْعكسُ القافية!

حصان مسعود

كان مسعود من السابقة إلى الحيِّ، وهو رجلٌ شارف السبعين من العمر، حمل معه حصانه الذي بِلَوْن الأرض، لم يُفرّط فيه تحت أي طارئ وظلَّ يرعاه ويأنس به في تلك الأيام. كُلّما تسلّلتُ إلى بيته وجدْتُه يقتعد مصطبة من التبن يمسح غُرَّتَه بتؤدة وعَيْنُه في عين الحصان وهما تدمعان، وراعني أن أقرأ من انعكاس ضوء الشمس عليهما قصّةَ الحب المثلوم.

كان يقول لي:

لم أجد شَيْئًا أقسى على الإنسان الذي واطأ الصهوة ثلاثين عامًا، ومنها اشرأبَّ إلى أبعد الأقمار وشارفَ الغيمات والخلجان، أن ينزل عنها في ركن بارد من هذا العالم.

ولا يكمل الحدث إلا بمشقّة كأنَّ نَصْلًا يشرق بحلقه.

سمعت زوجته فاطنة وكانت امرأة حَصانًا وصاحبة مشورة بين النساء، تسأله: «لماذا لا تبيع الحصان وترتاح من هذه الحال؟». وكان لا يردُّ عليها، بل لا يرفع عينه إليها، فإنَّ سؤالًا كهذا يُؤْذيه في

الصميم، ورُبّما انجرح معه شيءٌ عزيزٌ في داخله لا يعلمه إلا هو. ومرّةً جاء إليه سوّاق كارُّو يعرض عليه ثمنًا مُغْريًا لبيع الحصان، فردَّه على عقِبَيْه خاسئًا.

يوم مَرِض مسعود بسبب نزلة برد تحوَّلت مع الوقت إلى حُمّى فاتكة، سمع البعض ممّنْ عادوه أنّ الحِصان يشحج، وزاد بعضهم أنّه ينوح مع امرأته بصوت غريب.

وأيّامًا بعد ذلك، يمرض الحصان بعلّة غامضة، فظهرت على جلده بثورٌ سوداء، وأخذ يصدر عنه شحيجٌ كأنّه ينبعث من أبعد الأغوار. رمى مسعود عنه لحاف المرض ونهض يلهث لمداواة حصانه والرِّفْق به.

في آخر الليل، قبيل الفجر بنجمة بعيدة، مات الحصان. لم يُصدِّق مسعود الأمر حتى جاءته امرأته وبعض ذويه يرفعونه عن الحصان الذي انبطح على الأرض بلا حراكٍ، بلا أملٍ في الصهيل لآخر مرّة.

ساءت حال مسعود يَوْمًا على ظهر يوم حتّى جُنّ وخرج من البيت، وشُوهد في شارع المدينة الكبير يهذي باسم الحصان، وتداول الناس على نطاق واسع أنَّ مسعودًا كان من معتقلي الرأي السياسي، وأنّ الحصان ليس سوى اسمه الحركي. وكان الناس قد اعتادوا في تلك الأيام أن يصادفوا رِجالًا شُعْثًا مُهْمَلي اللباس لفظتهم سجون سنوات الرصاص، ومجانين لم يخْبُ جمر عيونهم شبيهين بأنبياء بلا رسالة. لكن الرصاص الذي أصاب بشظاياه مسعود، كان فوق الوصف.

سأصف شَيْئًا من هذا الرصاص في أحد تعبيرات مادة الإنشاء، إلا أن المُدرِّس شكّك في ما حكيتُ واعتقد أنّه جردة من قصة فانطاستيكية ما، وكتب على هامش الورقة: «موضوع خارج السياق». وعندما أمرني بقراءته في حصة الدرس، لم يُصدِّق أترابي من التلاميذ أن مجنونًا يعيش بين ظُهْرانيهم، فاحترزوا منّي لبعض الوقت.

الخبز يا مولاي!

أذكر أنَّه بعد عودتنا بأيّام قليلات، أثار انتباهي حِراكٌ غير عادي؛ فقد كانت في كل مكان من الحيِّ وغيره تُقام تجمهرات وتنتظم مسيرات يحمل مُتزعّموها منشوراتٌ ولوائح على رأسها وجوه لأشخاص جديّين ومُهمّين كما تقرأ من سحناتهم الصارمة التي تبدّدت وراء ابتسامات كاذبة. صياح وتصفيق يقطع الشعارات الرنّانة التي يهتف بها شباب عاطلون عن العمل، وقيل أنّهم أخذوا مالًا جزاء بما يقومون به.

كان مثل هذا الحدث الجماهيري غريبًا بالنسبة لي، وظللتُ أستفهم عنه حتى تناهى إلى مسمعيَّ بأن الأمر يتعلق بالانتخابات.

الانتخابات؟

يختار الشعب من يُمثّله في المجالس المنتخبة وفي البرلمان.

لأيّ غاية؟

من أجل أن يدافع المنتخبون عن مصالح الشعب ويأتون بالمشاريع التنموية التي تُدرّ أموالًا عليه فيعيش أبناؤه في رفاهية وأمان.

سمعت قائد الحملة الانتخابية يحدث الناس بمثل هذا الكلام، كُلّما مَرّ بجمعٍ منهم في زقاق من أزقة الحي الواطئة، بل طرق مع منه معه أبواب الصفيح على ساكنيه وأخذهم بكلام معسول. وحتى يقطع الشكّ باليقين ألقى إلى بعضهم بمؤونةٍ من سكر وأتاي وزيت، أو دسّ في يده نَزْرًا من المال.

كان أهل الحيِّ يعيشون في فقر مدقع، وزاد إِدْقاعًا مع تطبيق سياسة التقويم الهيكلي التي أملاها صندوق النقد الدولي، وقد كان من تداعياتها ارتفاع كلفة المعيشة وتطبيق رسوم إضافية على التعليم، فخرجت الاحتجاجات التي ووجهت بعنف أمني كبير واعتقالات واسعة، وعرفت بانتفاضة الخبز عام أربعة وثمانين.

فكان مثل هذا «الكرم» الإنساني الطافح يعيد إليهم الأمل في من يحكمونهم ويدبرون شؤونهم البلدية، ويعيد الثقة إلى أنفسهم بأنّهم أحياء يُفكَّر فيهم.

وكان المُتقدّمون إلى الانتخابات الجماعية من رجال المال والأعمال ممن يريدون الدفاع عن مصالحهم، أو من يتعلقون بأذيالهم ويريدون الوصول بأيِّ ثمن، ولا حِزْبَ حقيقيًّا ينتمون إليه ويموتون من أجله، بعد أن أقدمت السلطة على خلق أحزاب «كارتونية» ودعمها والدعاية لها، للتشويش على أحزاب «وطنية» عُرفت بتاريخها النضالي الطويل، فكانت تتّهمها بالعمالة والسعي إلى الانقلاب على الملك الحسن الثاني الذي كان يحكم بقبضة من حديد. وكُنْتَ تجد صوره في كل مكان كـ «شخص يجب

تقديسه»، ولاسيما في أعياد العراش التي تتزامن مع الثالث من مارس؛ إذ تجد الكثير قد نصبوا الخيام للاحتفال به وامتداح عبقريّته بسيل من الشِّعر والخُطَب.

وقد قُيِّض لي أن أحضر نِزالًا انتخابيًّا حامي الوطيس في ملعب كرة قدم مترب، بين مُرشَّحي الانتخابات البرلمانية: محمد حدُّو الشيكر الذي قيل بأنّه غَدا رجل دولة مُواليًا للنظام وملكيًّا أكثر من الملك، وبوعزة يَكّن الذي تداولت الألسن ثروته الضخمة التي جمعها من أماكن مشبوهة.

بدا التجمُّع فوق الوصف؛ فقد اصطفّت الناس والبهائم ووسائل النقل لمتابعة النزال، وعلت مُكبّرات الصوت بعبارة «الخبز يا مولاي!» وسط نَفيرٍ من الصياح والصفير والتصفيق، وعزف الرجلان على الأوتار الحساسة التي تستميل الجمهور وتُسيل لعابه: الأمازيغية. الملكية. الإسلام. التشغيل. الصحراء. الأمن. الضمان الاجتماعي. الزيادة في الأجور. وزاد أحدهما على ذلك بأنه سيأتي بالبحر في حال انتخابه، وردّ الثاني عليه بأن المغرب سيُحقّق اكتفاءه الذاتي من الحبوب والخميرة.

اِنْفضّ الجمع، والناس في هرج ومرج، وأدركتُ من اللحظة بأن الفقر «ابن كلبة»، ومُستغلّيه إخوانٌ بالرضاعة.

فاز محمد حدو الشيكر، وصعد إلى البرلمان فئة من الأُمّيين الذي وجدوا الفرصة سانحةً للوصول. وعاد الناس إلى سالف عهدهم للتعايش المزمن مع الفاقة والتأفُّف والشكوى ومغالبة النفس بحديث القضاء والقدر.

ساعاتٌ بلا طائل حتى وجدْتُها!

إنَّ أي شخص مثلي حالم ومُتطلّع إلى غد أفضل، سيكبر ناقِمًا على الواقع بسبب الأوضاع التي عاشها وتجرّع مرارتها. كنتُ مرّاتٍ لا أجد ما آكله في غياب الأم، وبالكاد أجد ما أتدفّأ به من علّة أو برد.

وقد تأثّر مستوى تحصيلي في «إعدادية المعمورة» التي التحقت بها إلى حدٍّ كبيرٍ، فقلَّت عنايتي بالواجبات المدرسية، وانحدر ترتيبي في الصفّ الدراسي إلى المراتب الوسطى، بل أخذ يصدر مِنّي بعض الشغب الذي لفت الإدارة إلي بعين الريبة.

لكن كانت بي أنفة ورثْتُها عن أبي، فلم يحصل أن مددتُ يدي إلى أحد، أو استعطفت هذا أو ذاك من أجل شيء عارٍ من الشرف. وفي أوقات العطل، ومن أجل تحصيل مصاريفي من الكسوة والكتب المدرسية التي بالكاد تُغطّيها الأم المسكينة، امتهنت بيع الحلوى للأطفال، والتبغ بالتقسيط، والكتب المدرسية المستعملة.

وكانت لي رفقةٌ ملعونة من أبناء الحي، قادتنا خطواتنا إلى السطو على البيض المقليّ من واجهات حوانيت البقالة، والعبث بأغراض

الناس في عرض الطريق، والتحرُّش بالصبايا وخادمات البيوت. وكان لنا في لعبة كرم القدم صولات وجولات، فلا نعود في المساء إلى بيوتنا إلا شُعْثًا غُبْرًا كما لو نجونا من زلزال ضرب للتوّ. مثلما تابعنا مباريات كرة القدم التي كان يخوضها فريق المدينة مع فرق بطولة القسم الثاني، ومباريات العدو الريفي التي تألّق فيها شبابها إلى حد أن أصبحوا عدّائين أُولمبيّين. كما انسَقْنا وراء هوى السينما التي كانت تعرض أفلاماً هندية وأفلام الكاوبوي والكراطي بعد أن نتحصل على تذاكر الدخول بِشِقِّ الأَنْفُس.

«سينما النور»، كان هذا هو اسمها، وشهرتها تعدّت المدينة إلى ضواحيها وقراها المترامية حيث يأتي فلاحوها الأمازيغ ليظفروا بمشاهد مُسلِّية ومُسيلة لِلُّعاب.

كنت أقف في الطابور لوقت طويل حتى أحصل على تذكرتي، فأَنْدسُّ مع الحشد الغفير إلى القاعة العريضة المعتمة والباردة التي يقف ببابها رجل أسود فارع الطول يقدح من عينيه الشرر، وكان يدعى باسم «كالا». وهو نفسه الذي يدير شريط الأفلام، وإذا حصل أن توقف الشريط عن البثّ لعطل فنّي، فأنت تسمع اللعنات تتنزل عليه وتنعته بأقذع الصفات من جمهور متعطش ومتأهب لكل طارئ فجائي. وأعتقد أنّه لم يكن يبالي بهذا السباب العارم، فقد استأنس به لكثرة ما تكرّر.

وأكثر ما يستهويني في السينما هو عرض الأفلام الهندية لما فيها من غناء شجي ذي إيحاء إيروتيكي مع الاستعراض الجسدي المارق

الذي يجري في طبيعة خلابة وبين عمران باهر الألوان. وكان مُجرّد أن ترقص أنثى هندية، أو تُغنّي ببحّةٍ مجروحةٍ، أو تسرح بطرفيها الأكحلين في الفضاء الشاسع كافِيًا ليشعل نار الشهوة الوليدة في بيادر مكبوتة بداخلي.

كنت أتلذّذ برؤية هذه الصور المتلاحقة لجسد الأنثى، وأتخيّل جسدها الطائر يلامس جسدي ويعبث به قطعةً قطعةً. كما أتخيّلُ نفسي البطل الذي يدافع عنها بشرف، ويمنع بمنكبيه العريضين عصبة الأشرار من الدنوّ منها. وما أفتأ أتحوّل بناظريَّ إلى أسفل الشاشة حيث شريط الترجمة يجري بسرعة، حتى أتبيّنَ سياق هذه اللقطة أو تلك داخل حبكة الفيلم، فإن إدراك المعنى مما يزيد في الأجر ولا يثبط العزيمة.

عندما أعود إلى البيت، وأنكمش في ركن منه حتى تأتي عليّ أحلام اليقظة وتسرح بي في عالم الخيال واستيهاماته ولذاذاته النديّة إلى أن يأخذني النوم.

ورُبّما زعمت أن هذه الأفلام بقدرما أثرت فيَّ بغنائها وشجنها وقيم بطولتها الرائعة وفضاءاتها الساحرة، فإنّها خلقت في نفسي شعورًا بالتّماهي مع آخر مرغوب فيه سأظلُّ أبحث عنه بوسيلةٍ أو بأخرى. ففي فترة المراهقة، أخذ وعيي بالعالم يُوجِّه حركاتي داخل المحيط الذي أتنقل داخله، وكان وعيًا شقيًّا في تجلياته العامة بسبب ظروف الفقر والحاجة التي كابدناها، وبسبب غياب المعيل الذي يكفينا مؤونتنا من الطعام والشراب؛ لأنّ الأم لن تستطيع لوحدها أن تسد الذرائع وتشملنا بظروف التخفيف.

ولكن أنّى لهذا الوعي أن يحول بيني وبين ما أرغب فيه ولو كان مجرد أوهام وخيالات وصور غير متحققة في الواقع، فازداد اهتمامي بالجسد على نحافته التي أورثَتْني عُقْدةً منه لم أُشْفَ منها لوقت طويل، وبنظافة الهندام على بساطته وخصاصه الظاهر، مع ميلٍ يكبر إلى العزلة والانكفاء على الذات.

وقد ترافق انهمامي بالذات مع قصة حُبّ عشتها، وأيّة قصة طريفة مثل هذه القصة!

ففي السنة ما قبل الأخيرة من الإعدادي، وقعت عيني على تلميذةٍ تدرس في فصل آخر، وكانت آيةً في الجمال، وزادت عليه بخفرها وطبعها الهادئ. لا أعرف ما الذي جذبني إليها، هل هي صور السينما الفاتنة؟ أم غرائز المراهقة الناشئة؟ أم هو النزوع الطارئ إلى إثبات الذات؟ أم هو سرٌّ من الأسرار التي لا تدرك بسهولة ويسر؟

تعلّق قلبي بالفتاة بشكل شبه صوفيّ؛ فقد بلغ افتتاني بصورتها والتفكُّر فيها طوال الوقت إلى حدّ أن أغيب في حضور غيرها، وأن أشرد بعقلي في مناسبات الجدّ والتعقل. ولكن الفتاة المُولَّه بها لا تدري للأمر شيئًا، وأنى لها أن تدري، وأنا لم أُفاتحها بكلمة ولا دنوت منها لأجل ذلك. فقد كنت أكتفي بالنظر إليها من بعيد، وقد يقشعر كلُّ بدني إذا خطت ناحيتي.

وقد تمرُّ بجانبي ولكنها لا تحسُّ بي، أو بوجودي مُطلقًا بينما أنا أذوب وأتلاشى. وفي بعض المرّات، اقتفيتُ خطوها إلى حيث

تسكن مُتخفِّيًا مثل لصّ، وكان البيت الذي تسكنه مع عائلتها ينمّ عن وجاهة ورفاه اجتماعي. وقد أظلُّ لساعاتٍ أترقّب ظهورها من إحدى نوافذ البيت من مسافة يحتاج معها الناظر إلى مجهر ليراها إن كانت هي أم شبحًا من أشباح أوّل الليل.

هل هذا حبّ أم لعبة الغُمّيضة؟ ولكن في الحقيقة وجدتُ في الأمر مع عذابه تسليةً، ومع مرارته حلاوةً، ومع شِقْوته سعادةً.

قلت في نفسي لا مناص من أن تعلم الفتاة بحُبّي، وذلك حتى أجسَّ ردّ فعلها تُجاهي، وأعرف إن كان لهذا الحُبّ إمكان للحياة. فعكفت على كتابة رسالة غرامية تلو أخرى أُعبّر فيها عن حُبّي لها وشدة شوقي إليها، لكن لم أجرؤ أن أمدّها إليها يدًا بيد، فأتلفتها مخافة أن يفتضح سرّي. ثُمّ وردت على بالي، من ضعفي وقلّة حيلتي، فكرة أن تتوسط تلميذة من بنات جنسها لي عندها بما يُشبه «مرسول الحُبّ».

وكانت هذه التلميذة تدرس معي وطالما اقتعدت بجانبي في حصص الدرس ورافقتها إلى بيت سكناها كأخت لي، فلم أتوانَ في أن أُخبرها بتعلُّقي بالفتاة، وبرغبتي في صداقتها. ولم تمتنع عن القيام بهذه الخدمة الإنسانية، إذ ذهبت للتوّ إليها وفاتحتها في الموضوع، ولكنّها عادت تُجرِّر أذيال الخيبة وتصدمني بأن المعشوقة خطب يدها أحدهم وتوشك أن تُزفّ إليه. وبالفعل، لم تمرّ إلا بضعة أيام حتى اختفت عن الأنظار. ووصل إلى علمي بأنّها ابنة صاحب بار مشهور في المدينة، وأنهم يعتاشون على المال الحرام.

ورُبّما، بسبب هذه القصة، امتدّت يدي إلى ورقة لتخُطَّ شيئًا فيه نَزْرٌ من الشعر وكثيرٌ من الوعد بالشعر. ورُبّما مثّلَ هذا الشعر كما هو تعويضًا عن إخفاقي من جملة إخفاقات صغيرة لكنّها، بمقياسِ مَنْ في عمري وشرطي الأرضي، كانت عاصفةً ومُدوّية. ورُبّما كانت، من قبل ومن بعد، هِبَـةً سماويّة.

فلسطين وجدْتُها على الألواح..

بعد نحو ثلاث سنوات من ملازمة الأمل الصعب في الحيِّ الذي يقع على أطراف المدينة، قررت أُمّي أن ننتقل للعيش مع أحد إخوتها في بيت يستأجره وسط حي شعبي عليه أمارات التمدُّن. كان الخال الذي يصغر أخته بخمسة عشر عامًا، أعزب وشابًّا مُقْبلًا على تجارة رابحة. ويتكون من ثلاث غرف ومطبخ وحمام وفناء، وأتاح لنا اتساع عمرانه أن نجلس إلى بعضنا البعض، وأن نتحلّق حول تلفاز صغير، وأن تنتظم لنا أوقاتٌ للأكل والشراب وأخرى للراحة والتنزُّه.

ومن هذا البيت بدا بصيصُ أمل تسرُّ لي به بعض الكوى، إلا أن خلوتي بالذات زادت عن ذي قبل، ومِلْتُ أكثر إلى البحث عن منافذ جديدة تبعث بخدرها اللذيذ إلى منطقة غائرة من النفس والوجدان، وتَهَبُ للقدم سُبُلًا لم يسبق أن شقَّتْها. ووجدت في شغفي بالمطالعة الأدبية حلًّا رائعًا في متناول اليد، وقد أتاح لي ذلك أن أغنم من سوق الكتب المستعملة مجلات رياضية وثقافية متنوعة ومُؤلّفات أدبية بأثمان زهيدة، وأحيانًا أُغِير عليها إذا لم أجد

ما أدفعه. وضمنها كتب مصطفى لطفى المنفلوطي وجبران خليل جبران ونجيب محفوظ، وكانت منتشرة بطبعاتها التجارية. عدا بعض الكتب الفلسفية والفكرية التي كانت مِحكًّا لعقلي قبل الأوان، ومنها كتاب حسين مروه: «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية». كما وجدت في لعب الكلمات المتقاطعة هوايةً للتسلية والتثقيف الذهني واللغوي.

وأذكر أنّي كنْتُ أحمل معي بعض هذه الكتب إلى القرية النائية على رأس كل عطلة صيف، بعد نتيجة دراسية مُرْضية كانت تسبقني وتوغر صدر زوجة عمي سعيد، فيما الأخير يُسرَّ فرحته بي في نفسه. وكنت أعتكف، طوال العطلة، على قراءة الكتب بنَهم، حتى سمعت من بعضهم أنَّ ولد عبد الله به مسٌّ أو قد جُنّ من فراغ اليد.

كما أخذْتُ أتردّد على محلات بيع الصحف والمجلات الوطنية والعربية، وأتصفحها في غفلةٍ من أصحابها، فأطالع منها على عناوينها الرئيسية التي تأخذني إلى قضايا قومية ووطنية، أو أقتنيها إن بدا لي لا بُدّ. وكانت قضية فلسطين من العناوين الأكثر بروزًا وإيلامًا، ولاسيما مع انتفاضة أطفال الحجارة التي انطلقت عام سبع وثمانين من جباليا في قطاع غزة، قبل أن تشتعل في كل أرض فلسطين بمدنها وقراها ومُخيّماتها، ثُمّ هدأت عام واحد وتسعين مع توقيع اتفاقية أوسلو الغادرة.

تأثّرت بما كنت أقرؤه عن فلسطين، وأرى جرحي من جراحها النازفة التي لا تندمل، وكان هذا كافِيًا ليغذي في نفسي شعورًا

قوميًّا أصيلًا. وكتبتُ في بداياتي الأولى شعرًا عن فلسطين وأطفال الحجارة، مُتأثِّرًا بما كنت أقرؤه لشعراء من المغرب والمشرق عن الانتفاضة حيث الشِّعر أكثر المُؤبِّنين وأكثرهم هُتافًا. قد أكون سمعتُ عن الشاعر محمود درويش في هذه الفترة، أو بالأحرى سمعتُ شعره المُغنّى من طرف مارسيل خليفة، لكن لم أقرأ له بشكل واعٍ إلا بعد سنتين أو ثلاث من هذا التاريخ.

ومن شاشة التلفزة، كانت تتقاطر صور فلسطين الدامية: أعراس الشهداء وزغاريد أمّهاتهن. الأطفال يرمون العدوّ بالحجارة وصدورهم عارية. ياسر عرفات بالكوفية وشارة النصر. مديح الظل العالي. خطب الشجب والاستنكار من أفواه حكام العرب المتخاذلين. الضحيّة يصل صراخها إلى الجميع، لكن الفيتو الأمريكي يطمرها مع قرائن الإدانة في جنح الضمير.

دمٌ نازفٌ كالصمغ يعلق بالألواح في فلسطين. حرب العبث بين العراق وإيران، وأخرى على الوهم بين المجاهدين الأفغان والاتحاد السوفياتي. مثلما كانت تصل إلى مسمعي أصداء حرب من الصحراء بين انفصاليي البوليزاريو والجيش المغربي، ولاسيّما من أخ آخر لأُمّي كان عسكريًّا على جبهة القتال. مذابح الخمير الحمر. تداعيات تشرنوبيل النووية. حرائق تحجب أَدْخِنتُها سحُبَ الأمل في أكثر من مكان.

كان العالم يبدو لي غابة من الصور الشائهة، وما يحدث فيه باسم دينٍ أو قانونٍ بدا لي غير مفهوم. وعندما تهاوى جدار برلين، تغيّرتْ قواعد لعبة الأمم بين اللاعبين أنفسهم.

وفي المقابل، ثمّة صورٌ زاهيةٌ تصنع الفرح وتطفح بالأمل والتفاؤل؛ إذ تخرج من الشاشة، وتسلم عليّ تِباعًا. صور مارادونا، مضارب رولان غاروس اللامعة، فاتن حمامة، عبد الهادي بلخياط، قشبال وزروال، أطفال القناة الصغيرة صبيحة كلّ أحد.

وكانت الأنشطة الملكية، والسهرات الغنائية الشعبية، ومعزوفات طرب الآلة المتثاقلة، ومباريات الكرة، والمسلسلات المصرية الطويلة أكثر ما يعرضه التلفزيون المغربي خلال ساعات بثّه التي لا تتعدى في المجموع عشر ساعاتٍ. وحصل مرّاتٍ أن الملك أمر بإيقاف بثّ برنامج ما، إذا بدا فيه ما يعكر مزاجه في تلك الليلة، أو يوقع بينه وبين شعبه بسوء فهم. وكما سأعرف فيما بعد، فقد تحوّل التلفزيون بيد الداخلية إلى وسيلة إلهاء جماهيرية كبيرة.

وندر أنِ اهتمَّ هذا التلفزيون بالثقافة التي أخذت تستهويني وتناديني عليَّ من أمكنة بعيدة، إلا ما كان من برنامج «منتدى الثقافة» الذي غلّبت فقراته البعد الترفيهي على حساب التثقيف الجادّ. لكن البرنامج الذي شدَّني إليه على الإطلاق هو «دفاتر الأيام» الذي آليت على نفسي ألا أحرمها منه، وإن اضطررت أن أشاهده واقِفًا بإحدى مقاهي المدينة. يتحدث هذا البرنامج في كل حلقة من حلقاته عن شخصية بارزة في عالم الشعر والأدب، من مثل: نجيب محفوظ، مصطفى أمين، توفيق الحكيم، إحسان عبد القدوس، عائشة بنت الرحمن، عمر أبو ريشة، محمد مهدي الجواهري، يوسف إدريس، ميخائيل نعيمة، يحيى حقي، سهير القلماوي، عبد الله البردوني.

فأنْ يتحدّث شاعر أو أديب عن ماضيه الشخصي، ويتطرق إلى أطراف من سيرته الذاتية، أو إلى المصادر الأساسية التي ينهل منها، وطقوس كتابته، والمصاعب التي واجهها في بداية تفتُّق موهبته الأدبية، كان ممّا يستهويني في البرنامج ويجعلني فاغِرًا فايَ لبعض الوقت. ورُبّما رسخت بذاكرتي صورة إحسان عبد القدوس بجسمه الغليظ، ووجهه الطفولي المضيء، وهو يتحدث عن علاقته العجيبة بأُمّه روز اليوسف.

هبة القصيدة

بيد أنَّ قَدَرًا جميلًا كان بانتظاري في زاوية ما من العالم؛ إذ قادَتْني يدايَ -لا أدري صُدْفةً أم هِبةً؟- إلى كتاب «ميزان الذهب في صناعة أشعار العرب» للسيد أحمد الهاشمي، الذي كان بمثابة كتاب مُقدّس. ظننْتُهُ في الأول كتابًا من كتب السحر والشعوذة التي كانت ذائعة بين أيدي الناس، وذلك لكثرة ما فيه من الجدول وأشكال الترميز والتقسيم والتقطيع، شبيهًا بـ«كتاب الدمياطي» الشهير.

نعم، إنّه كتابُ سحر، لكنّهُ سحر الشِّعر.

سأظلُّ مع هذا الكتاب لوقْتٍ أَنْساني همَّ الوقت، أحفظ ما فيه من أبيات الشعر المنتقاة بعناية، وأجد ما فيها من القيم الرفيعة سلوى لي. وأتعلّم منه -بشيء من الحرص- قوانين العروض والقافية من خلال التمارين التي تتكرر في نهاية كل بحر شعري، ثُمّ فيما يتعلق منها بالقافية من حيث حروفها وعيوبها.

وأنفقْتُ ساعاتٍ أحاول ضبط الأوزان عن طريق تقطيع الأبيات عروضيًّا، وكنت أفعل ذلك بمنأى عن عيون الفضوليّين؛ فلو رآني

أحدهم في ما أنا فيه من الأهوال والأحوال، لكان راعه منظري وأنا أتفصّدُ عرقًا وأتمتم بحروف غامضة لا تبين، كأنّي نبيٌّ يتلقى وَحْيًا من السماء ويتكتّمُ عليه.

سوّدْتُ أوراقًا كثيرة، وخططتُ خَرْبشاتٍ بِخطّي الغريب، وأنا أركض وراء الكلمات بشُبّاكي حتى تقع على التفاعيل بِأيِّ معنى كان. ومُسمِّرًا عينيَّ في المعجم، أدوّن القوافي التي تنتهي بالحرف نفسه. قافية على إثر قافية مثل سكة حديد بلا مسافرين.

كنت، والحقُّ يُقال، أزعم أن الوافد يجب أن تُكْرم وفادته كعبد مأمور، وأن أُدرِّب نفسي على الانضباط والدقة، وأغرف من معين اللغة العربية البعيد الغور، وهو ما جعل حرصي على سلامة اللغة والافتنان بها من أولويّات أسلوبي في الكتابة مُسْتقبلًا.

وقد أتاح لي التمرين العروضي الشاقّ أن أحوز ثقافة إيقاعية، سماعية وبصرية في آن، أوقعتني في مواقف حرج داخل الفصل الدراسي مع أساتذة لا يعرفون من العروض والقافية إلا معلومات عامة وغابت عنهم دقائق العِلْمين. وأذكر أن أحدهم نهرني بقوة، وتوعّدني بالطرد إذا عدْتُ إلى تخطئته بمرأى التلاميذ، كأنّي أهنْتُه في كرامة.

آنذاك، كانت حدود وعيي بالشِّعر لا زالت غائمة ومضطربة، بموازاة مع طرق تدريس الأدب العقيمة وما يستتبعها من نزوع مدرسي يُشيِّئ القصيدة ويُسطِّح عمقها اللغوي والمجازي إلى حدٍّ فادح. مُعلَّقات، قصائد ومقطوعات شعرية كانت تمرُّ أمامي عيني بدون أن تُثير فيّ إحْساسًا، ولا أن تحملني إلى مسافةٍ أخرى

من الجمال والذوق. فقد كان مدرّسو العربية يتأفّفون من الشعر، ويُكنّون عَداءً خفيًّا إزاءه. ولهذا كانت حصة الشعر ثقيلةً ومُملّة وبلا معنى يُذكر.

وبسبب ذلك، غدا أقراني من التلاميذ يُكنّون العداء نفسه، بل يُجاهرون به. إنّ أيَّ طالب بينهم يحسن إلقاء قصيدة، أو ينجز عَرْضًا عن الشعر، أو يتدخّل برأي جمالي فيه كان يضع نفسه في موقف لا يُحسد عليه من السخرية والتنكيت، فلا يعود إلى ذلك مرّة ثانية. لم يكن الأمر يتعلّق بجيلي، بل بأجيالٍ سبقت وأخرى أتتْ لاحِقًا. عداءٌ مستحكم، بالفعل.

ولولا قدماي اللّتانِ ساقتاني إلى دواوين خارج الفصل الدراسي وإكراهاته، ولولا حاجة إلى تعويض كنْتُ أحِسُّها بداخلي، لوجدْتُ نفسي بينهم ناقمًا على الشعر وأهله. قادَتْني خُطايَ إلى مكتبة، فاقتنيْتُ دواوين من الشعر مما يدَّخر صاحبها منه: «رباعيات الخيام» بترجمة أحمد رامي، «الملاّح التائه» لعلي محمود طه، «الحياة الحب» لإبراهيم محمد نجا. كما تحايلْتُ على دواوين أخرى بإعارة أو إغارة، من مثل: «أغاني الحياة» لأبي القاسم الشابي، و«ديوان إيليا أبي ماضي»، و«ديوان بهاء الدين زهير».

كانت ساعاتي بين الدواوين الأولى ساعات حبّ وإصغاء وتعلُّم وصفاء، ثُمّ سرعان ما استحال ذلك إلى أجنحة أطير بها وأُغنّي من الحرمان، وعلى شفاهي هذا البيت الشعري لإيليا أبي ماضي:

الشُّجاعُ الشُّجاعُ عندي من أَمْسَى يُغنّي والدّمْـعُ في الأجفانِ.

كذلك تأثّرت باختيارات الشاعر من أصل فلسطيني وجيه فهمي صلاح والشاعر محمد بنعمارة في برنامجيهما الإذاعيين «مع ناشئة الأدب» و«حدائق الشعر»، حيث يُلْقى الشعر شفويًّا، ويتصادى مع صوتي اليتيم. ومن إذاعة طنجة الجهوية، كان يأتيني صوت محمد شكري واثِقًا رغم غَوْر بُحّته الجريحة، وناعِمًا رغم وخزه الذي لا يُصدَّق؛ من برنامجه «شكري يتحدثّ». قضايا وآراء نقدية وجمالية هي نتاج قراءة مختلفة وصادمة الوعي السائد وذوقه العام. سأقرأ لهذا الكاتب عمله «زمن الأخطاء»، وهو الجزء الثاني لسيرته الذاتية الأشهر بعنوان «الخبز الحافي». ولم يكن خبزه وحده، بل خبزنا نحن، المنقوع بزمنٍ مغربيٍّ مُرٍّ أصابنا بأخطائه الكثيرة، وتأذَّيْنا من ناسه في الصميم.

وشيئًا فشيئًا، صارت قراءاتي للشعر العربي تتنوَّع بين القديم والحديث، فتعرّفْتُ على سحر الجاهلية، وحداثات المتنبي وأبي تمام والمعري العابرة للأزمنة، ورقّة شعراء الغزل في نسج رؤاهم للحبّ ومعاناته، وفيما بعد -تحت شعورٍ بالعجب والصدمة- تعرّفْتُ على حيويّة الشعر الحر في عبوره إلى العصر وحداثته ونهوضه بِمُتخيّلٍ شعريٍّ جديد، وعلى مفارقات محمد الماغوط وأمل دنقل ومظفر النواب وأحمد مطر الساخرة في نقد الواقع السياسي والاجتماعي، وعلى شعريّات بدر شاكر السياب وصلاح عبد الصبور محمود درويش وسعدي يوسف وأدونيس العابرة بالشعر العربي إلى الكَوْنيّ.

وأما حَظِّي من الشعر المغربي فكان ضئيلًا، إلّا ما وقع بين يديَّ مما كان يُنْشر مُتفرّقًا من شعر شعراء غذّوا في نفسي شعورًا بِهُويّتي

الجريحة، من أمثال: محمد الحلوي وأحمد المجاطي وعبد الكريم الطبال وإدريس الملياني، قبل أن يتاح لي قراءة ديواني «روض الزيتون» لشاعر الحمراء محمد بن إبراهيم و«آخر أعوام العقم» لمحمد الميموني. كما كانت أشعار فنّي «العيطة» و«الملحون» الأصيلين أبلغ في وجداني، ثمّ سرعان ما انفتحتُ على الشعر الفرنسي وسواه من أشعار العالم مُترجمةً إلى العربية من خلال مجلّتيْ «لوتس» و«الكرمل».

لكن الديوان الذي زلزل فهمي للشِّعر وأراني العالم بوجْهٍ آخر، هو ديوان «أحلى قصائدي» للشاعر نزار قباني الذي كانت شهرته تطبق الآفاق. والديوان عبارة عن كتاب جيب يسهل عليَّ حمله أنّى حللتُ وارتحلت، وكان بمثابة مختارات شعرية تضمُّ القصائد المفاتيح لشعر هذا الشاعر، التي تركت وراءها أسئلة وحرائق ودُخانًا.

ما كان يجذبني إليه فيستحوذ على مشاعري هو الموضوعات التي هرّبت أحلامي من مقصورة الرومانسيين وجعلتها في تماسّ مع الواقع ومِحكّه اللاهب الذي كان يغلي في بداية التسعينيّات، قبل أن ينصرف اهتمامي إلى اللغة المتوتّرة الجذّابة التي كتب بها نزار، والإيقاع الذي عزف عليه شعره بنمطيه العمودي والتفعيلي مَسْموعًا وقويًّا.

من أمكنةٍ بعيدة، إذن، عليَّ تنادي كتبُ الشِّعر، على صبواتي الوليدة من الحبّ إلى معاناته بما في ذلك معاناة صَوْغه لُغَويًّا. فقد فعلت فيَّ الأشعار، على فتراتٍ متعاقبة، فعل السِّحْر وقدحت ذهني،

ووشمت وجداني، فصارت رؤيتي للعالم، نتيجةً لمقروئيّتي وتفاعلي معها، رومانسيّةً وحالمةً قبل أن تصطبغ بشيء من الواقعية.

أحسسْتُ في قرارة نفسي، بعد سنواتٍ من اغترابي النفسي والوجودي، بأنّي عثرْتُ على أصفيائي من الشعراء من هؤلاء وأولئك، وقد قرأتُ ما خطّوه بكلِّ جوارحي، وذرفتُ معهم دموع هذه التجربة أو تلك، وارتفعْتُ وإيّاهم على مدارج الحلم والخيال.

أحسسْتُ في هذه اللحظة برغبة عارمة وغامضة في التعبير كأيّ شاعر وجد نفسه في حياة صعبة أعزل إلا من أشواق سريرته الساعية للتحرُّر والانطلاق. لا أقول إن المصادفة هي التي قادتني إلى القصيدة، بل الضرورة التي تتغذّى على شرطنا الإنساني، وأفكر في جان كوكتو وهو يصرخ: «الشعر ضرورةٌ، وآه لو أعرف لماذا!».

في هذه الضرورة، وجدتُ نفسي مُتورّطًا في ضيافة القصيدة، أقترب منها وأُعانيها. أذكر الآن كيف كانت تلك الأيام الأولى لكتابة القصيدة تتقاسم معي عمري الجميل والصعب في آن، وكان عليَّ أن أتعلّم آداب ضيافتها منذ تلك اللحظة الممتدّة في الزمن.

كتبْتُ البيت والبيتَيْن، حتّى استوت غَيْمةُ الحال قصيدةً طوال هذه الأيام التي لا تُعدّ بغير ألسنة النّار ومشاغلها في الذّات. أستضمر الواقع والمجاز والمُقدّس جَنْبًا إلى جنب، حتّى أتت الكتابة في زخم الحياة وفي غفلةٍ منّي، فأنقذَتْني!

ضوء الكلمات

بَدا لي الْعُصْفور
وهو يَتَوارَى في كَبِد السَّماء
مِثْل قَطْرة حِبْر
تَلْتمعُ من أَحَدِ الْكُتُبِ النَّفيسة
على دَرَج الأَحْزان
أُقلِّبُ بِعَيْنيَّ في الْكِتاب
أَسْمعُ أَصْواتًا
مِنْ خَفْق أَجْنِحةٍ
تمتزجُ بِأَلْوانِ الرِّيح.
أَنامُ
ثُمَّ
يَتَراءى لي
الْعُصْفور
وقَدْ تَزوَّجَ الرِّيح أَيْضًا.

لِأنَّ نَدَب الحُبّ
كانَ يَحْتاجُ لَوْنًا؛
لِأنَّ النَّباتَ يريدُ أَنْ يَطْلعَ لَيْلًا،
سارَتْ بي الأقدامُ إلى النَّهْر حيْثُ حالَتْ
غابةٌ بِأَكْملِها - حَجَرًا.
مِنْ نِيرانٍ تَشْتعل
في حَقْل الحقيقة الشَّارد،
تضيعُ الأَوْراق؛
لَكنَّما الكلماتُ تَعْلقُ بِالأَجْنحة

وهي
إلى الْيَوْم
تَذّخرُ ضَوْءَ الشِّعر.
أنا بعْدُ
أَفْرِكُ عينَيْ وَعْلٍ
على الصَّفْحة الأُولى
في أَسْفل الدَّرَج،
وَأُبْصر
من آخر النَّهار
عُصْفورًا أَسْود يَضْرِبُ بِجَناحَيْهِ:
إِنَّهُ قَصيدة..
إِنَّهُ قَصيدة.

يا للمفارقة!

في عطلة صيف تسعة وثمانين، وجدْتُ نفسي أنظم أول أبيات لقصيدة ممكنة أوقّعها باسمي. لا أذكر شيئًا عن القصيدة، لكن أتلمّس ضوءها وراء دخان الأحلام، وأتلمّظ مذاقها البعيد على لساني.

أقرأ، وأخطُّ كلماتي الجريحة مجازًا، وأُعاني من أجل التعبير عن دخائلي الدفينة بتمارين لغوية وإيقاعية كثيرة. وأذكر أنّه حين مات جدّي، استغللت غياب أُمّي فمددت يدي إلى الدخان ونفثته بانتشاء، معتقدًا- كما توهمت من صور الأدباء وهم يحملون سجائر بين أصابعهم أو يدخنونها في التلفزيون - بأنّه الطريق إلى الإلهام. وتوافق ذلك مع ما كان في نفسي من ميل شديد إلى العزلة، ونفورٍ غير مفهوم من عامّة الناس، إذ كنتُ أختلي لساعاتٍ طويلة بذاتي، تحت هذه الشجرة، أو على مقعد من مقاعد إحدى الحدائق العامة التي كانت تنعم بها مدينة الخميسات قبل أن يزحف عليها الإسمنت البغيض.

ولا أزال أذكر أن خطّي لغرابته وصغر حجمه أثار أنظار زملائي وأساتذتي وامتحن أفهامهم؛ فكانوا يتجشّمون العناء لقراءة ما أكتبه، وفكّ رموزه، وكأنّهم حقيقةً أمام طلاسم ورُقىً سحريّة، وليس أمام قصائد أولى لشاعر ناشئ كان يكتبُ ما يرِدُ عليه بارتعاش وتوق غامض. وترافق ذلك، عفويًّا، مع سماعي للأغاني العربية الكلاسيكية لكلّ من محمد عبد الوهاب، وأم كلثوم، وفيروز، وعبد الحليم، وفريد الأطرش، وعبد الوهاب الدكالي ونجاة الصغيرة؛ بل إنّ أغنية ضمن شريط اقتنيْتُهُ من محلّ بيع الكاسيط، بعنوان: «يا طير يا طاير» لمُغنٍّ مغمور أقلّ شهرة، كنت لا أملُّ من سماعها، كأنّه يناديني عليّ للتحليق وقد ربّيْتُ أولى أجنحتي من دبيب الكلمات وفضائها، فأتخيّلُني ذلك الطائر الذي يقاوم بمخلبيه الصغيرين الأقفاص الحديدية، ويهمُّ بالانطلاق إلى فضاء الله.

كانت أولى القصائد التي أخذتُ أكتبها تتوزع بين شكلٍ عموديٍّ وآخر توشيحيٍّ. وشاءت الظروف أن يتناهى إلى سمعي برنامج شعري يُذاع على أمواج الإذاعة الوطنية، وقد اشتهر مع الشاعر المغربي إدريس الجاي الذي أنشأه، قبل أن يتولّاه بعد رحيله الشاعر وجيه فهمي صالح.

كان وجيه، مُعدّ البرنامج، فلسطينيَّ الأصل، اشتغل في بداية مساره الإعلامي بإذاعة الشرق الأقصى، ثُمّ جاء إلى المغرب واختصَّ بتقديم البرامج الفكرية والأدبية في الإذاعة. عُرف بوصفه شاعرًا غِنائيًّا كتب للأغنية المغربية أجمل القصائد الفصحى، وأشهرها

القصيدة الوطنية «الفرحة الكبرى» التي لحنها الموسيقار أحمد البيضاوي وتألقت في أدائها الفنانة المصرية هدى سلطان، والقصيدة الرومانسية «ذكرى خلاصي» التي أدّاها أحمد البيضاوي.

سحرني وجيه بصوته العذب الرقراق أثناء تقديم البرنامج، وأكثر حين كان ينشد قصائد من شعره ومن شعر أشهر شعراء الرومانسية مثل إيليا أبي ماضي وبشارة الخوري. وما يزال هذان البيتان لأبي الماضي يتردّدان في أذني إلى اليوم:

أَيُّهذا الشّـــاكي وما بِكَ داءٌ كيف تَغْدو إذا غدوْتَ عَلِيلا
إنّ شَرَّ الجُناةِ في الأَرْضِ نفْسٌ تتوقَّى قَبْل الرّحيلِ الرَّحيلا

سأقرأ لأبي ماضي كل أشعاره في هذه الفترة، ووجدت في صميمها ترياقًا لروحي وعزاءً لي عن حياةٍ لم أَخْترها. وكان هذا البيت وحده بمجرّد ما أُنْشده وأُدَنْدنه بيني وبين نفسي حتى يبعث فيها رجاءً عظيمًا:

الشُّجاعُ الشُّجاعُ عِنْديَ من أَمْـ سَى يُغنّي والدّمْعُ في الأَجْفانِ

أعترف بِدَيْن وجيه فهمي صلاح عليَّ؛ فهو أول أساتذتي الحقيقيين في بداياتي الشعرية، ومن شدّ أزري يوم كانت الرياح تعصف بي من كل جانب، مع أنّي لم أقرأ له كتابًا في الشعر إلا ذلك الكتاب الكبير الذي يفتحه أمامي ويُفتّح كل جارحةٍ داخلي لتقرأه معي.

فمنذ أن اتّصلْتُ بالبرنامج، وأخذتْ قصائدي الخطّية ترِدُ عليه بين عامي تسعة وثمانين وواحد وتسعين، لم يفتأ وجيه يُقدّمني على

غيري ويثني عليّ ويضرب المثل بي في بروز الموهبة. مَثّل ذلك بالنسبة إلي حافزًا على المُضيّ قدُمًا في درب الكتابة وتطويرها؛ بل زادت ثقته بي حين اكتشفت أنّ أحدهم يسرق قصيدة من مجلة «الشعر» المصرية كان بحوزتي أحد أعدادها، وينسبها إلى نفسه. كتبت رسالة نقد لاذعة إلى الشاعر السارق، وضمّنتُها معنى واجب احترام الشعر وقُدْسيّته.

كان للإذاعة في تلك الأيام شأنٌ عظيم ونفوذٌ لا يُنازع، وكان البرنامج يُبثّ على أمواج الإذاعة الوطنية في وقت الذروة بين السادسة والسابعة مساء كُلّ ثلاثاء، فافتضح أمري بصفتي «شاعرًا» بين أصدقائي وأفراد عائلتي، وأنا الذي اعتبرْتُ الشعر حالة فرديّة خاصة يُكتب بمنأى عن أعين النّاس وفضولهم، إلا أنّه في الحقيقة أشعرني بالزّهو والتفرُّد.

أذكر وقتها أنّي في إحدى زيارات للقرية خلال عطلة الصيف، اقترب مني عمّي سعيد مُتوجّسًا، وأخبرني بأنّ أحدًا من أصحابه في السوق سمع بلقب «الوراري» يتردد في الإذاعة. ولمّا أخبرته بأن هناك برنامجًا أدبيًّا يذيع لي شعرًا أكتبه، لمحت أطياف الفرح على مُحيّاه، ثُمّ سرعان ما داخَلهُ الخوف إن كان الأمر يتعلّق بالسياسة أو بأمر جلل؛ فلم يكن العمُّ سمع قبل هذا الوقت بكلمة «شعر».

ولئن تبدّدت الكثير من قصائدي الأولى في دخان حياتي، فلن أنسى قصيدة «يا مُنْيتي» على مجزوء الكامل وقافية النون، التي سكبتُ فيها أنفاس هواي الجريح، ومنها هذا البيت الغريب الذي يشرط ما قبله وما بعده:

يا مُنْيتي إنْ متُّ في يَوْمٍ وَهُزَّ النعشُ مَتْـنا

لما استمع إليها بعض أصحابي الظرفاء، اعتقدوا بأنّي نظَمْتُها تَغزُّلًا بفتاة كانت تدرس معنا في الثانوية نفسها، تُدعى «مُنْية»، وأنّي أريد بالقصيدة التودُّد إليها ومجاملتها. ذاع الأمر في الثانوية، وعلمت به الفتاة، ووجدْتُ حالتي بين خوف ورجاء. وحمدت الله أن النعش مرَّ بسلام، ولم يُعرض على المجلس التأديبي.

في إحدى الحلقات، سيفاجئنا وجيه برغبة إدارة الإذاعة بطبع دواويننا، نحن شعراءه الأكثر حضورًا. خاصمني النوم في تلك الليلة، وظلّت أطياف الحلم اللذيذ تراقص مُخيِّلتي، وتعبث بشعري القصير. أن يكون لي ديوانٌ مدبوغًا بِحرّ أنفاسي، وعليه صورتي واسمي إسْوةً بالشعراء الحديثين الذين بدأْتُ أقرأ لهم وتشدُّني صورهم على أغلفة كتبهم، وأنا طالب في الثانوية دون العشرين من العمر، فيا لَلْحُلم! يا لَلْهِبَة الربّانية!

ضممْتُ القصائد الجديدة والقصائد التي سبق أن قد أُذيعت في البرنامج بين دفّتي ديوان، وجعلت عنوانه ذا إيحاء رومانسي: «عرائس الصبا». حملت معي الديوان إلى الرباط التي عثرتُ على تذكرة السفر إليها بالكاد. ومن محطّة القامرة إلى شارع محمد الخامس، قطعتُ طريقًا طويلة ماشيًا، وجسدي تحت ثيابي يكاد يطير من السيارات الفارهة التي تمرق كالبرق، أو يتبدّد من حرِّ يوْمٍ كالصراط. حين وصلتُ إلى الشارع الأشهر في العاصمة، سألتُ عن «سينما الملكي»، وقريبًا منها وجدت «مكتبة المعرفة» التي

تعود ملكيّتها إلى وجيه. ما أن دلفت إليها حتى داخلتني رهبة المكان، ثُمّ واجهني رجلٌ طاعنٌ في السنّ يتوكأ على عصا وابتسامة ملائكية تُجلّل مُحيّاه. قدّمتُ إليه نفسي، فرحب بي أيّما ترحاب، وقدّم إلي مَشْروبًا على عادة الكرم العربي الأصيل. وكان معه بعض شعراء التقليدية بجلابيبهم فقدّمهم إلي، وكنتُ ممن كنت أقرأ لهم في مجلة «دعوة الحقّ»، بمن فيهم محمد بن محمد العلمي الذي اشتهر بقصائده في «العرشيات»، وله قصائد أخرى في الحكمة والمديح النبوي ومناجاة الله.

تَحدّث إلي وجيه كأب بلباقة ولطف، وأثنى على موهبتي، وأخبرني بأنّ مدير الإذاعة محمد طريشة معجبٌ بأشعاري. أودعتُهُ «عرائس الصبا»، حبّي الأوّل، ومتاع ذاتي الشحيح، ودهشتي الأولى بالأشياء والعالم كما نثرتُها في قصائد وجدانية وعاطفية، منظومة بين شكلي العمود والمُوشّح. لكن هذا الديوان لم يكن إلّا حلمًا في الكرى، ولا أعرف أين هو الآن، فقد ضاع إلى الأبد، وضاع الذي كُنْتُه يومئذ من الحال والمحال؟

ويكفي أنّي وجدت في برنامج «مع ناشئة الأدب»، سانحةً غالية وتَعْويضًا لا يتصوَّر عن واقع مُرّ لا يسمي الشعر ويتخاصم معه، إلا ما كان من شعر العرشيّات الذي كان يطالع به التلفزيون طوال يوم الثالث من مارس من كل عام، تاريخ جلوس الملك الحسن الثاني على عرش المغرب. وكان الشعراء في هذا الضرب من شعر المديح نَظّامين في أغلبهم. وهالني عددهم الذي يتجاوز المئات، وهم

يهتفون بأمجاد المغرب في عهد الملك من الصباح حتى المساء، بِبِذْلاتٍ عصرية مع ربطات عنق أو بجلابيب تقليدية. وشدَّني من هؤلاء: محمد الحلوي بلغته الصافية وصوره الحسية، وأحمد عبد السلام البقالي بتراكيبه البسيطة وإيقاعه الراقص.

يا للمفارقة!

ففي وقتٍ كنت مُنْهمكًا في ترتيب أوضاع بيتي الرمزي، كانت أُمّي تُواجه حُكْمًا بالإفراغ من البيت الذي انتقلنا للسكن فيه بعد زواج الخال الأعزب، إذْ لم تجد ما تُؤدّيه من سومة الكراء.

ماذا بِوُسْع الشِّعر اللامرئي والمستكين إلى نفسه كبضاعة تالفة، أن يفعله لي ولغيري من حوائج السوق البشرية، حتى أردَّ عني الشرّ الوبيل لواقعٍ لا يرحم، وتكاليف أعباء جديدة في الطريق؟

سلوى وعزاء

مع اكتشافي للشِّعر واعتكافي على كتابته في لحظة متوتِّرة من وعيي بالحياة وشرطها الإنساني، بدأ تاريخ جديد بالنسبة إلي؛ بدأ نداءً هامِسًا وحاسِمًا من عبوري ذلك الوعي بما يشترطه من انتقالٍ وجدانيٍّ بين الأمكنة المُتعيّنة والمحلوم بها، ومن حساسيّةٍ حادّة بسؤال الكينونة وندائها.

بيد أنَّ أوّل ما نُشر لي لم يكن من الشعر، بل كان قصة قصيرة استوحيتها من المجموعة القصصية «همس الحنون» للروائي نجيب محفوظ، وقد نُشرت في جريدة «السياسة» الكويتية في ربيع عام تسعين. كان حدثًا شخصيًّا من سجل التاريخ لا أنساه؛ إذ داخلني العجب بالنفس وأنا أجد اسمي جنبًا إلى جنب مع أدباء وشعراء معروفين، وتوهّمْتُ أن الناس الذين اصطّفت بهم كراسي المقاهي على أرصفة الشارع الرئيسي ينظرون إلي بافتخار، بل منهم من يُحدِّث صاحبه بأنّ هذا هو «عبد اللطيف الوراري» الذي نشر القصة القصيرة هذا اليوم، مع أنّ هؤلاء بسحناتهم المُتغضِّنة كانوا

في معظمهم فلّاحين مهاجرين وأصحاب موقف ينتظرون قوت يومهم في شغل طارئ، وندر أن ترمق بين أيديهم المتعرقة التي تشققت أطرافها صحيفةً أو كتابًا ما.

وفي الجريدة نفسها نشرْتُ، بعد هذه القصة، نصّيْن أو ثلاثةً من الشعر الرومانسي الذي لم يكن يخلو من طرافة البدايات والمفاجآت غير السارّة للقافية، قبل أن تتوقف على إثر غزو العراق للكويت صيف ذلك العام الضاجّ بكل أخبار الدم والعار.

وأذكر أني لم أستسغ قرار الغزو، ولا ما صنعت طلائع الجيش من أعمال مشينة في الكويت العاصمة، إلا أن حبي جرى مع مياه الرافدين، وسمعت صوتي مبحوحًا كُلّما رُفعت مآذن بغداد بالأذان، بعدما اجتمع تحالفٌ دوليٌّ في حرب ظالمة على حضارته وكدحه العقلي لمئات السنين. وكنت مع الناس لا تفارق آذاننا إذاعة ميدي 1، نتسقط الأخبار بلهفة الجائع، فنفرح إن سمعنا أن طائرة من التحالف سقطت، وأن صاروخًا سقط في إسرائيل. لكن حماسة المذيع المتواطئ معنا كانت تعمى عن حقائق صادمة على الأرض، حتى جاء خبر الهزيمة بطعم الصعق والشعور بالمذلّة.

وأذكر أننا خرجنا في عزّ الحرب نهتف باسم صدام حسين ونستنصره على الأعداء الغزاة، مندفعين من مدرج الثانوية إلى الشارع، وقد لاحقتنا هراوات العسكر، وبعضنا قضى تلك الليلة في مخفر الشرطة.

وأذكر أنّي شرعت في كتابة نص شعري في لوحات حوارية قصيرة تجري بين دجلة والفرات تحت القصف، ولم أُتممه بعد

الذي صارت إليه نتيجة الحرب. وقد تأثرت فيه بما كان يكتبه وقتئذٍ بعض الشعراء في الصفحة الأخيرة من جريدة «العلم»، من أمثال: علي الصقلي وحسن الطريبق ومصطفى الشليح.

في هذه السنّ تململ بداخلي شعورٌ قوميٌّ غامض، سرعان ما برز مع الأحداث الدراماتيكية التي فجّرتها انتفاضة أطفال الحجارة في فلسطين منذ ثلاث سنوات خلت، وغذّتْه قصائد نزار قباني الأخيرة الممهورة بهجائها السياسي اللاذع.

لقد كان الشِّعر بالنسبة إليَّ جُنّة، عزاءً وسلوى.

لذلك، عندما انتقلت إلى «ثانوية موسى بن نصير» في الطرف الآخر من المدينة، كثيرون من زملائي وصلوا مُحْبطين وأكبر من سنِّهم؛ فمنهم من أدمن المخدّرات، أو تعلّق ببغيٍّ، أو تهالك على مقعد الدرس قبل أن يُفْصل. وبعضهم تعرض لغسيل فكري من جماعات اليسار الراديكالي أو الإسلام السياسي أثناء صعوده، لأن الجامعة على الأبواب، والفصائل الإيديولوجية داخلها تحتاج إلى حطب يابس في المعركة المصيرية التي عليها «مستقبل الأمة في صراعها ضد الإمبريالية والرجعية».

وأذكر أنّ أحد زملائي في الفصل الدراسي، وكان سمت التديُّن باديًا عليه، أمدّني بكتابين لأحد زعماء الحركة الإسلامية بالمغرب لغاية مفيدة. وقد بقي الكتابان عندي لوقت دون أن أستطيع قراءة أيٍّ منهما، فقد ملأ الشِّعر عليَّ سماء جديدة، ثالثة، من حياتي ووجداني، فأرجعتهما إليه مع ما يوجبه الشكر وجميل العرفان.

بل إنّه دعاني فيما بعد -كأنّي به يجسُّ مفعول تأثُّري- إلى مجلس «إخوانيٍّ» بأحد دور الصفيح، وحضرت مع من حضر من شباب المدينة وفقرائها، فراعني ما وجدتُ فيه من امتثال وخنوع وفكر قطيعي، ورجعتُ ساخِطًا على نفسي ومُتودّدًا إلى الشعر ألّا أخرج ثانيةً على ميثاق شرفه وحياض مملكته السعيدة.

لقد كان الشِّعر بالنسبة إليَّ جُنّة، عزاءً وسلوى.

من البيت إلى الثانوية، كانت الطريق من علائمها محفوظةً عندي؛ فإما أتصفح صحف اليوم وجديد المجلّات والكتب في مكتبة بالشارع الرئيسي، أو أدلف إلى الجامع الكبير وأركن في زاوية منه أقرأ القرآن وأتأمّل في آياته قبل الصلاة بين جماعة مؤمنين كبار السنّ، أو أُتمتم بكلمات وأعاريض وعمليات حساب تأتي عليَّ بغتةً، ذاهِبًا وآيِبًا. كأنّي لزمتُ نفسي بهذا الترسيم الشاقّ، فإنّ أي التفاتة قد تُكلِّفني طريقًا ثانية لا قِبَل لي بها.

تبدو لي المدينة في الصباح هادئةً مستكينة إلى قدرها كأنّها تترقب قدوم البرابرة، إلا من رِجالٍ شُعْثٍ مُهْمَلي اللباس يسبُّون الحكومة وينعتون المارة بالصبر على المذلّة والقهر. سأعرف لاحقًا بأنّهم كانوا سجناء رأي سنوات الرصاص، وخرجوا إلى الشارع بلا وظيفة كانت لهم، وبلا رسالة دافعوا من أجلها.

وفي المساء تضجُّ شوارع المدينة بأغاني المُغنّيَيْن الشعبيّيْن الشاب فصل ونجاة عتابو اللّذيْن صعدا نجمهما في تلك الأيام، وتهافت الناس على أشرطتهما الغنائية وردَّدوا مع القائلين: «قولوا العام زين!»

وفي المدينة لم يكن هناك مُتنفّسٌ ثقافيٌّ عموميٌّ نحضر فعاليّاته بانتظام، أو نتهجّى فيه بإبداعنا الناشئ فيستمع إلينا ساكنتها من جمهور الأدب على ضآلته، سوى دار الشباب التي لم تكن تُقدّم منتوجًا أدبيًّا رفيعًا إلا لِمامًا، لسوء الإدارة وتهافت أكثرهم على تأسيس جمعيّاتٍ أو نوادٍ لا علاقة لها بالثقافة والأدب. أو لنقُلْ إنّنا أتينا إلى هذه الدار بعد العصر الذهبي الذي شهدته مع «جمعية النهضة الثقافية» من بداية السبعينات إلى أواسط الثمانينات، وكان المسرحي عبد الكريم برشيد عرّابَ الجمعية ومُلْهِمَها الذي كتب لها أجمل مسرحيّاته، أو أعدَّها دراماتورجيًّا واقتبسها من أعمال أدباء عرب وأجانب، بكل أبعادها الفرجوية والقومية.

ولكن أُتيح لي أن أطالع في خزانة دار الشباب دواوين جديدة، وكتبًا في نقد الشعر لطه حسين وعباس محمود العقاد وعيسى الناعوري وعز الدين إسماعيل وسلمى الخضراء الجيوسي وسامي اليوسف ونجيب العوفي وغيرهم، وهو ما فتح عينيّ على مفاهيم ومفردات جديدة تتعلق بالمعرفة الشعرية وأسرارها.

وفي هذه الدار شاركتُ بقراءة شعرية ضمن نشاطٍ أدبيٍّ وطني حضره ثُلّة من الأدباء الشباب الذي كان يشقُّ طريقه في القصة والشعر وقتئذٍ، نظّمته جمعية المبدعين التي كان يرأسها سعيد عامل يوم كان يقرض الشعر قبل أن يتحول عنه إلى المسرح والتمثيل، وكرّمتْ فيه الشاعر بنسالم الدمناتي أحد شعراء جيل الستينيات في الشعر المغربي.

وكُنَّا نتناوب على منصة القراءات وفوق رؤوسنا تخفق يافطة كُتِب عليها بخطٍّ أحمر: «بمناسبة عيد العرش المجيد»؛ فإن أيَّ نشاط ثقافي لا يصحُّ أن ينعقد إلا بمباركة المجلس البلدي الذي لا يجود بماله العامّ إلا في مناسبة وطنية وتحت الرعاية السامية لجلالة الملك، أو في حملة انتخابية سابقة لأوانها. وعدا ذلك، فلا مكان للثقافة التي كانت تعني عند مسؤولي المدينة ما يُشْبه المعارضة السياسية الضمنية للقصر الملكي؛ لأنّ أغلب المثقفين كانوا ذوي توجُّهات يسارية يمكن أن تَتبيَّنها من خطابهم ولباسهم وتسريحة شعرهم.

بيد أنَّ البناية التي شدّت انتباهي، وشدَدْتُ شغاف قلبي إليها، هي بناية ملتقى الثقافات-اليونسكو التي كان يديرها الشاعر الزجال محمد الراشق. كانت منارةً ثقافيّةً قلّ أن أدَّت نظيراتها من المؤسسات العمومية ما كانت تضطلع به من العمل الثقافي والجمعوي لسنوات، يزدهر حينًا ويخفت حينًا آخر. فقد صارت محجًّا لأدباء ومثقفين مغاربة فعلت محاضراتهم عن الشعر والرواية والمسرح والسينما والملحون في شبابها فعل السحر، وهم الذين نبغوا في تحصيلهم الدراسي وظلّوا يتوقون للإفصاح عن مواهبهم بلا طائل، بعدما تَميَّع النشاط الثقافي، وآلت الأمور لغير أهلها مِمّنْ كان دَيْدنهم الارتزاق وهمّ الوصولية على حساب الثقافة.

تتكوّنُ البناية من طابقين، أرضي للتنشيط الثقافي، وعلوي للسكن الإداري. يفصل بينها وبين الثانوية التي التحقت بها للدراسة في أواخر الثمانينيات طريقٌ وطنيّة تمرق عبرها السيارات الفارهة

بلوحات رسمية. وفي الأطراف تتراءى لك غابة بأشجار الأوكاليبتوس العظيمة، تتوسّطها كنيسة أثرت عن حقبة الاستعمار الفرنسي.

وترافق تردُّدي على البناية والسياحة بلا وقت في الغابة مُتأمّلًا وسادرًا في تخيُّلاتي، مع بداياتي الشعرية. ولمّا عَلِم سي محمد من بعض زملائي بأنّي أكتب الشعر، إذ كنتُ أخفي تعاطيه كمن يتعاطى إدمان شيء خطير، حتى أنزلني بين أترابي منزلةً خاصّةً، وحرص على أن يُشْركني في أيّ نشاطٍ يشرف عليه.

في هذه البناية، تعرّفتُ من جديد على الشاعر بنسالم الدمناتي أحد شعراء الستينيات في الشعر المغربي، والكاتب المسرحي عبد الكريم برشيد رائد الاحتفالية، وكاتب القصة لحسن حمامة صاحب «عندما تتكلم الحيطان»، وعلى جيل جديدٍ من الكُتّاب يتلمّس طريقه وقتئذٍ.

وفي البناية نفسها، سأقرأ قصيدة لي لأوّل مرة أمام جمهور. كنت أقرأ وأرتجف، والكلمات تشرق بحلقي كأنَّ صرخةً ما بداخلي تريد أن تتحرّر. وأذكر أن استعرتُ من أحد زملائي في الدراسة قميصًا وحذاءً لامِعًا حتى أظهر على المنصة كما يليق بشاعر واعد.

ومع الوقت اكتشفْتُ أنّي ليس الوحيد الذي أسره فنّ الأدب أو أغوَتْه ربّة الشعر، وأذاقَتْه كلماتها المعذِّبة، فقد وجدْتُ بين زملائي في الثانوية من انتهى مصيره إلى مصيري، وكابد مكابدتي. فقد تعرّفْتُ على لفيفٍ منهم ممّنْ ضاق ذِرْعًا بدروس الثانوية الطويلة والمُملّة، وكان يسترق الوقت لإشباع موهبته الأدبية في كتابٍ أو

في مجلس من المجالس الأدبية التي كُنّا نعقدها في مقهى بوسط المدينة فنناقش هذه القضية، أو نتحاور حول هذه الظاهرة، أو نتذوّق هذه الصورة أو اللطيفة مِمّا كان يغدقه علينا الأدب شعره ونثره. ولم تكن مناقشاتنا تخلو من اختلافٍ في الرأي أو الذّوْق، بل كُنّا نجد في ذلك عافيةً ودَليلًا على بداية نضجنا الفكري.

كان بعضهم اتّجه إلى كتابة القصة، والآخر إلى فنّ التمثيل داخل فرق مسرحية هاوية، والثالث ممسوس بالشِّعر. لكن كثيرًا من هؤلاء من طلّقَ، لاحقًا، مزاج الأدب بعد توجُّهه إلى دراسة الحقوق أو العلم الشرعي، أو نتيجة انشغاله بأمورٍ معسرة. كنْتُ أحد القلّة الناجين، وإن كانت ظروفي أعسر، وذات يدي أضيق، غير أنّ شغفي بالشعر كان لا يُعادله أيُّ شغف؛ إذْ وجدتُ فيه مُعادِلًا لليتم الشخصي والإنساني الذي عانيْتُهُ منذ صباي؛ اليتم بمعناه الفيزيقي والوجودي.

كانت اختياراتي الشعرية الوجدانية، والتزامي النمط العمودي في بدايات كتابتي الشعرية، ودفاعي عنهما باستماتة وفهم، لا يُرْضي أكثر هؤلاء. فكانوا يُلقّبونني، لمزًا وغمزًا، بألقاب الشعراء المشهورين من القديم والحديث. الحطيئة. البحتري. الشابي. السياب. أمّا أنا فقد كنتُ أشعر بالفخر والزهو عندما يرنُّ أحد هذه الأسماء في أذني، أو أن أقيس -وهمًا- قامتي بقاماتهم الباسقة. ولكن، ما أوهى هذا الوهم!

لقد آلمني أن أسمع مثل هذا الكلام أكثر من مرّةٍ بما يشبه إجْماعًا: ما الفائدة من شعر أو غيره لا يسدُّ جوع صاحبه ولا يوصله

إلى غاية. ساعاتٌ طويلةٌ قضيْتَها في الشعر وعلى حوافّه تبدو لك كأنّها هباء. وُوجِهْتُ مِرارًا بمثل هذا السؤال: هل أستمرّ في الكتابة أم أنقطع عنها إلى شأنٍ آخر؟

عندما حصلتُ على شهادة الباكلوريا صيف اثنين وتسعين، وأنا بعد في العشرين، أَسرَّ إليَّ أحد الأصدقاء ممن أثق فيهم بأنَّ الشعر لا يغني ولا يسمن من جوع. عليك بالدراسة الجامعية والنجاح فيها حتى تضمن لك مكانًا في هذا العالم، وتنشر لباسك الخاصّ تحت شمسه.

وقع كلامه في نفسي مَوْقعًا رهيبًا، بل صدمني وأيقظني من لذاذات غفلةٍ تمكّنتْ مِنّي لزمن سحيق في حساب النفس. لقد كنتُ مثل المستغرق في وَهْمٍ جَميلٍ أمام نهر صغير يتخيّله طافحًا بهدير الأمواج وفضّة الزبد، والحور العين على ضفّتيْه يرشقنني باللوز والأمل، حتى أتى من يخبرني بأنَّ لا شيء في النهر، فأفسد عليَّ وهمي الجميل وطرد من مياه مُخيّلتي الأسماك والنوارس وأجراس القاع الدافقة إلى أجل غير مُسمَّى.

ليس لي اللّيْلةَ ما أَفعله

هذا دُخانٌ
يَحْجبُ الرُّؤية عن يَوْمي.
تسلّيْتُ مع الْحُوتِ
وَعَفْو الخاطِر استرجَعْتُ إيقاعًا.
خفيفًا في خُطى النّرْد
أَرى العَتْمة
تَأسو قَدَح الأحراش.
كَمْ وقْتٍ لَنا
يا صـَاحبي،
حَتّى أُسَمّيكَ
هَوى جُوعي
وأمْشي
في عَماكْ؟

(شهادات)

سيرة الاحتفاء:

لماذا يفكر الأديب او الإنسان عموما بكتابة سيرته الذاتية؟

سؤالٌ يراودني ويلح علي كلما أقبلت على قراءة هذا الجنس الإبداعي المخاتل. ولهذا أجدني دائمًا ابحث عن الجواب في ثنايا ما أقرأه.

قد يكون هذا جزءًا من السؤال الأكبر لماذا نكتب؟ وقد يعود إلى «قناعات» منهجية حتى وإن لم تكن صارمة ولكنها حاضرة. لست من المؤمنين بـ«موت المؤلف»، وكثيرًا ما أجدني في مهمّة البحث عنه من خلال ما يكتب، ولا أقصد طبعا «حرفية» ما يكتب..

عندما بدأت قراءة هذه الشذرات سيطرت عليَّ قناعة أو فكرة كانت تتضح معالمها وتكبر كلما تعمقت في ثنايا تلك الحكايات الممتعة.. وهي التي جعلتني أعطيها هذا العنوان «سيرة الاحتفاء».

الكاتب لا يحاول استرجاع الماضي وعرض تفاصيله وتذكر أحداثه، بل هي نظرة يلقيها عليه من خلال «حاضره»؛ هذا الحاضر الذي يشكل «المحطة» التي توقفت عندها سيرةُ حافلةٍ وسيرةٌ

حافلةٌ. محطة انتهت بها مرحلة لتبدأ أخرى أكثر طُموحًا. ولكنّه وصول بسلام ورضا و«غنيمة» تستحقُّ الاحتفاء..

لذلك، وطيلة هذه السيرة/ الحياة المليئة بالمنعجرات والمطبّات، لا تشعر بأن هناك عنفًا أو علاقة قسرية مع الذاكرة، رغم أنها لم تخل من قسوة وألم. بل ربما كانت أغلب مراحلها الأولى عنفًا جسديًّا ونفسيًّا بليغًا. وفي أقسى لحظات العودة إلى «الماضي» ظلت اللغة متمنعة عن استدرار «العطف» أو السقوط في ظلمات النقمة وليّ عنق البؤس للاثارة: «وجدوه أسفل الجرف يضع رِجْلًا على رجل، ويده اليمنى تسند خدَّه كأنه حيٌّ ويريد أن يتفوّه بكلمة. وربما قالها وصعدت إلى الملكوت الاعلى».

هكذا يعبر الكاتب عن حالة الفقد التي عاشها الطفل الذي أضاع أباه ولما يجفَّ حليب أمه على شفاه أبنائها..

ورغم كل محطات الحرمان والمكابدة ظلّ الكاتب مُحافظًا على انتشائه بلحظات الفرح والحب والدهشة... يربت على الجراح التي كالها له الزمن ويزرع بين شقوقها بذور الشعر والأمل والمستقبل: «يَوْمًا على ظهر يوم أدرج و أسقط. ألهو و أبكي. أمرض و أتعافى. ثم سرعان ما تفتحت عيناي على عالم أتخيله أشبه بالسحر والخرافة: مساقط الماء. مواسم الحصاد الذي لم ينقطع وما يعقبه...»

الكاتب وهو يسترجع سيرته لا يقول «كل شيء» ولا ينصاع إلى البحث في دروبها عن التفاصيل، ولكنّه وفي نفس الوقت لا يتعمد إخفاء أيِّ شيء لقناعة تبدو عميقة بأن كل لحظة طيلة تلك الحياة،

تستحقّ الاحتفاء: «...لتشتغل أمّي من جديد في معمل النسيج كأيِّ أسطورةٍ كُتب عليها أن تعيش الوحدة مرة أخرى، ولكنها لا تمل من مفاجآت السرد وتوالي البرق فيه». أو: «وأين اختفى عندما كانت أسناننا تصطكُّ من برد الليالي القارس بمقربةٍ منها، و نعدم ما نتدفأ به؟»

إن الكتابة عن الذات، مهما بلغت درجة عمقها وقوّتها، لا تعني بالضرورة رغبةً أو حتى قدرة على التصالح مع الماضي وربما الحاضر؛ وهذا بالذات ما يبدو قويًّا في هذه الشذرات وتتخلله التماعة هدف صغير بطعم الحلم سجّله ذلك الطفل الذي كانه في مرمى الحياة دون أن يتوقف عن استكمال «لعبه» معها...

هذه شذرات من سيرة ذاتية ولكنها أيضًا «جماعيّة»، وذلك بابٌ آخر مشرع على قراءات وعوالم أكثر إدْهاشًا وعمقًا وتمثيلًا لتجربة جيل كامل.

العالية ماء العينين (أديبة وباحثة أكاديمية)

سيرة الكفاح:

قرأت (ضوء ودخان) فلم يَرُعْني فيها ما ذكره عن معاناته في مراحل حياته الأولى من يُتْم شخصيٍّ ووجوديٍّ، وتقلب في مراحل دراسية كان فيها منذ حفظه القرآن والتحاقه بصفوف المدرسة، وما كان يبديه من تفوق في المستويات، ولا حتى اختياره الشعر في وسط لم يكن يعرف أي معنى لهذه الكلمة، لكن الذي راعني فيها

هو حديثه الذي لا يمكن أن يكون إلّا صادقًا عن لقائه أول مرة بالشِّعر حين استوقفه كتاب «ميزان الذهب»، وكيف قرأه، وهو يحلُّ جداوله ليمتلك منذ البدء حصانةً لن يضيع بعدها على درب الشعر، وليصبح أحد أقوى أصواتنا الشعرية بعد أن عرف كيف يطعمها بما اذَّخره عبر سلسلة تجارب مؤلمة في الطفولة التي لم تجد ملعقة ذهبية تملأ فمه بما يلذ ويطيب، ولكنها كانت حافلةً بأشواك كثيرة ووَرْدٍ أقلَّ إلا ورد الموهبة.

ذلك هو ما يَرُوع قارئ هذه الشَّذرات، بل إنّه يزداد انبهارًا بإنجاز هذا الشاعر، بينما يرى أن طريقه كانت تنصب الشِّراك لخطواته حتى من خلال النماذج البشرية التي كُتِب له اللقاء معها؛ فقد وصل عبد اللطيف الوراري ناجيًا من الوقوع بين أيدي كان من المُتوقَّع أن تحمله، ومغريات الكسب السهل، تحت ضغوط الفقر إلى أن يتوقَّف أو ألا يتوفَّق. لكن ضوء القصيدة غالِبٌ؛ لأنّ جمرة الفن في نفسه الشاعرة كانت أصيلة، وصدقُ الشاعر في الإصغاء إلى أجمل ما في لغتنا من أصوات وأصداء بَدْءًا من بيان القرآن وفصاحته، وبأنقى ما تحمله الأشعار الأصيلة فيها أو المترجمة إليها.

وهكذا، فما يبهر من سيرة هذا الشاعر هو مسار كفاحه، حتى تمَّ لقاؤه بالسيد الشعر، أو سيدتنا القصيدة التي نجح في إنقاذها مما رآها تتمرغ فيه على يد شعراء رسميّين، فحلق مُبْتعدًا بالشِّعر عن حضيضٍ كان يتهدده ويتهددها في آن، وانتصر للجمال لامتلائه بالقيم الرفيعة التي كانت سلوى له منذ البداية، فربحنا شاعرًا عظيمًا

كما يشهد بذلك إنجازه إلى حد الآن، ولا تزال آفاق المفتوحة أمامه تؤكد أن قصيدته القادمة أروع وأكثر نضارةً وسحرًا وجمالًا.

أحمد بنميمون (شاعر وقاص)

سيرة الشاعر:

قد لا نبالغ أو نجانب صواب العنوان إذا نحن استبدلنا في مُخيّلتنا عبارة «ضوء ودخان» بعبارة «سيرة الشاعر» بصيغة التعريف؛ فأهم ما يطالعك في هذه الشذرات المكتوبة بحبر اللوعة والحنين والصدق والبساطة والشعر هو صورة شخص لا يفتأ يتقمّصك رَغْمًا عنك بين هذا الفصل وذاك. ذلك أن الكثير من السحر الذي يشدُّك شدًّا لمواصلة قراءة هذا الكتاب، يتأتى من لعبة التمرئي التي يمارسها السرد عليك مُسْتدعيًا صورًا من ماضيك الخاص. وهو نفس ما جعل روائيًّا كبيرًا مثل جيمس جويس يعنون سيرته الذاتية بـ»سيرة الفنان في شبابه»، راسمًا صورة الفنان بشكل عام فيما هو يرسم ملامح صورته الخاصة.

فهنا الولادة وطقوسها، اليتم، الشغب الطفولي، التنقل من جغرافيا إلى جغرافيا، ذكريات التمدرس الأولى، الأسواق الأسبوعية، كتاب «اقرأ»، العشق الأول وخيباته الأولى، انبثاق جذوة الشعر، كتاب «ميزان الذهب»، وغيرها من الأشياء والأحداث والمواقف التي يرسمها الشاعر والناقد عبداللطيف الوراري ليس فقط كسارد لسيرته الخاصة، ولكن أيضًا بوصفه شاعرًا يغوص إلى عمق تلك الأحاسيس

الخام التي يمتزج فيها الخاص مع ما هو جوهري وكوني؛ أي ذلك النبع الروحي الذي يمتح منه الشعراء والفنانون.

في هذا السرد الدافق بدفء غديرٍ خريفيٍّ لا نقرأ فقط مرحلة هامة وتأسيسية من حياة هذا الشاعر المميز، بل نتقرّى ملامح مرحلة تاريخية هامة من مراحل المغرب الحديث؛ سنوات الحلم، والسنوات العجاف، وسنوات الرصاص، ليأخذنا الفصل الأخير على حين غرّةٍ، عندما تكون لذّة السرد قد استغرقتنا حتى تمنّيْنا انسيابه إلى ما لا نهاية.

نورالدين الزويتني (شاعر ومترجم)

الفهرس

- عَوْدًا على بدء 7
- دُكّالة 11
- رأيت النُّور 15
- اليتيم وشركاؤه 19
- صَبْرًا، أيّتها الذاكرة.. 27
- تاريخ الهجرات 29
- أن يحكي عمِّي سعيد 32
- سوق الأربعاء 35
- الخروج 38
- اعتقدناه ضَرْبًا من الحلوى 40
- يتبدّد بالتقسيط مثل غيمة مكبوتة 44
- حريق في السماء 51
- عرب وأمازيغ 54
- العلّيق الذي ينمو في حجر أُمّي 56

- حصان مسعود 58
- الخبز يا مولاي! 61
- ساعاتٌ بلا طائل حتى وجدْتُها! 64
- فلسطين وجدْتُها على الألواح.. 70
- هبة القصيدة..... 75
- ضوء الكلمات 81
- يا للمفارقة! 83
- سلوى وعزاء..... 90
- ليس لي اللّيْلةَ ما أَفعله 99
- (شهادات) 100